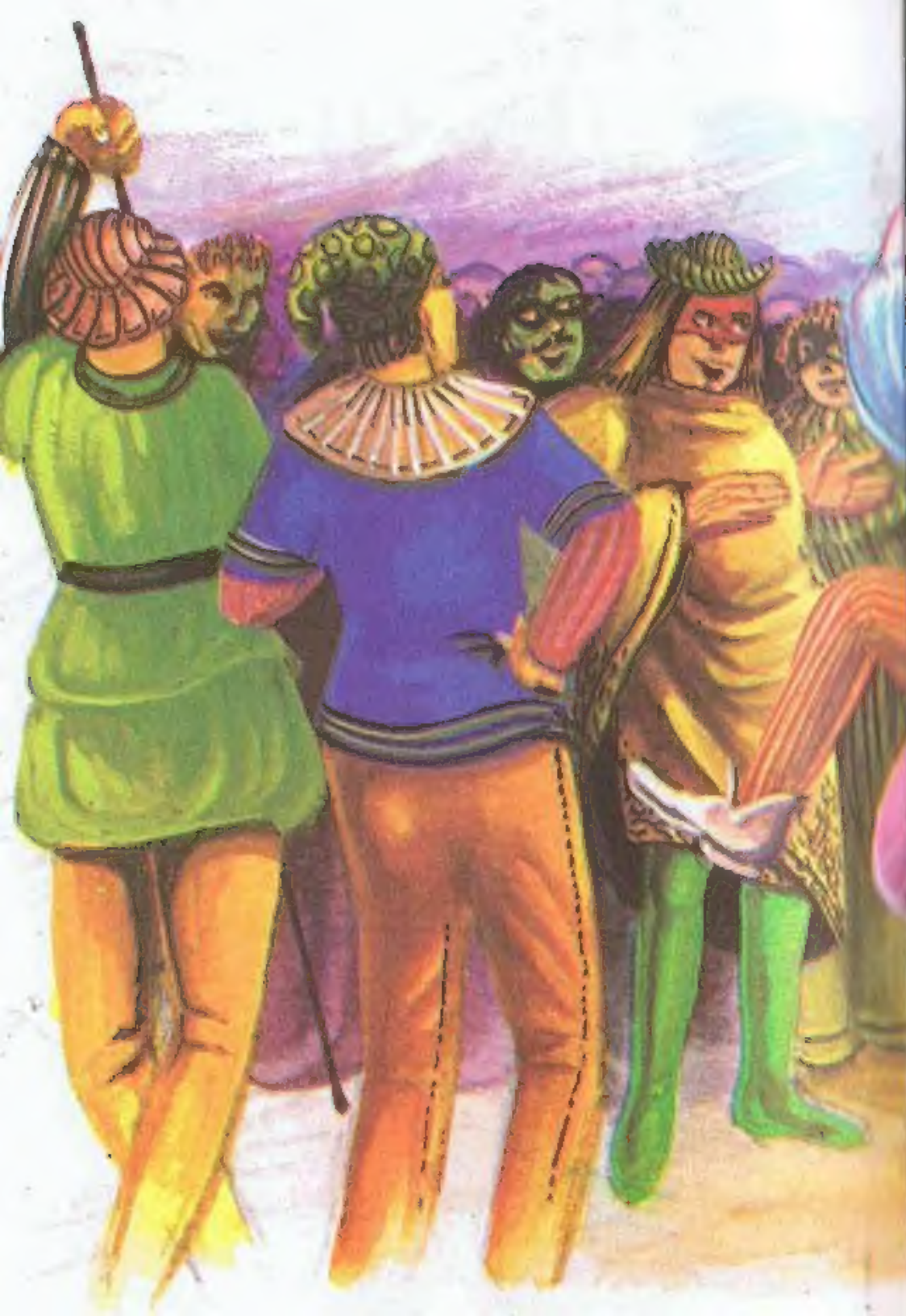


الحشرة الذهبية

وقصص أخرى

المغامرات المثيرة





الحِزَّةُ الذَّهَبِيَّةُ

وَقَصَصٌ أُخَرَى



تأليف: إدغار آلان پُو
إعداد: اسماعيل أبو العزائم
رسوم: حسن عبد الستار

مَكْتَبَةُ لِبْنَان
بِئِرُوت

© الشركة المصرية العالمية للنشر - لونجمان

١٠ أ شارع حسين واصف، ميدان المساحة، النقي - الجيزة
جميع الحقوق محفوظة : لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب، أو تخزينه
أو تسجيله بأية وسيلة، أو تصويره دون موافقة خطية من الناشر.

الطبعة الثانية

رقم الإيداع: ٢٢٩٦ / ٨٨

الترقيم الدولي: ٩٧٧-٩٤٤٥-٥٤-٥ ISBN

طبع بمطابع دار المعارف - القاهرة

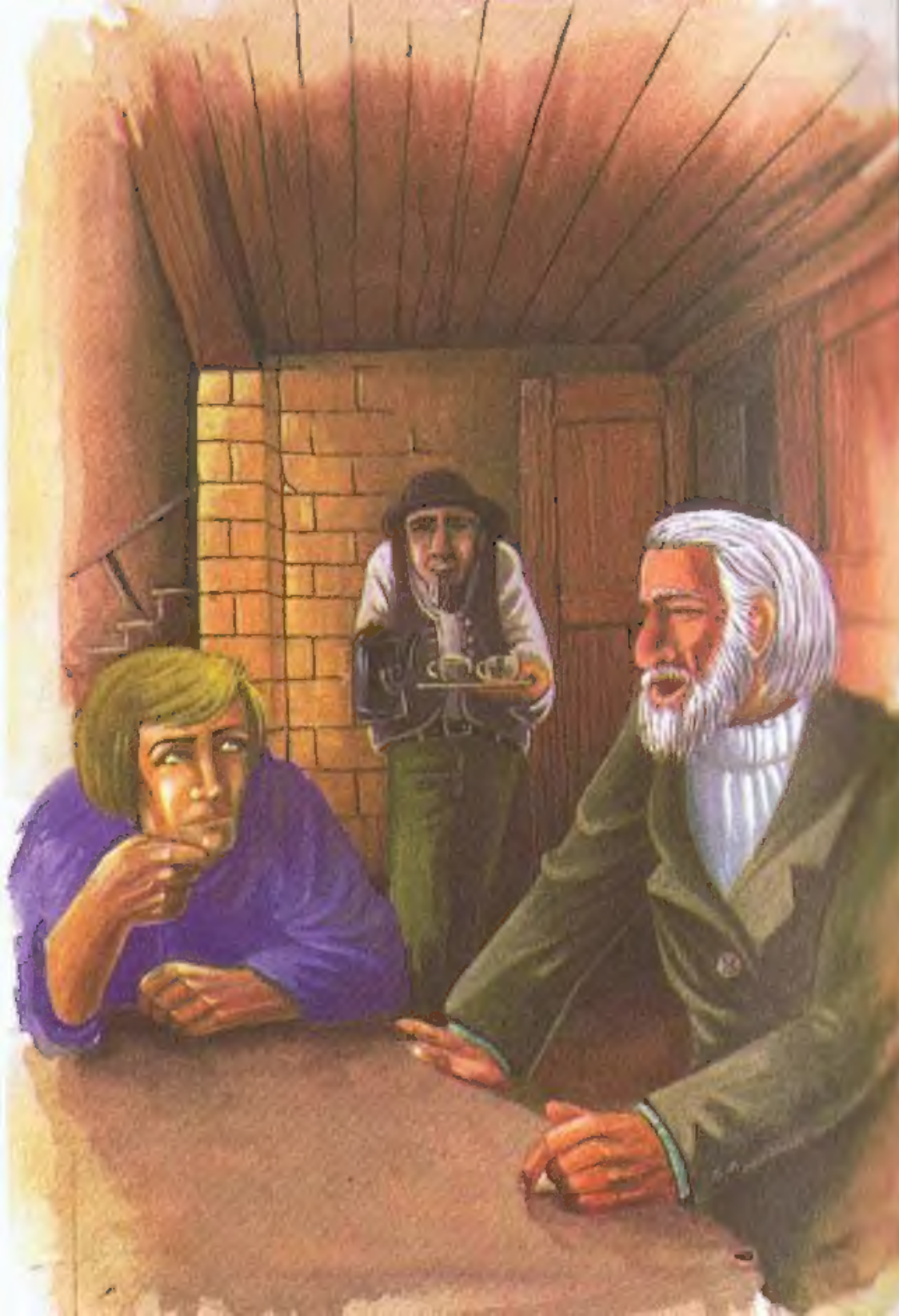
الحشرة الذهبية

بدأت صداقتي مع السيد ولیم لوگران منذ عدة سنوات . كان يتعم بالثراء ، ولكنه افتقر بسبب عدد من النكبات التي ألمت به . ولكي يتجنب ما قد تسببه الفاقة من إخراج ، ذهب ليعيش في جزيرة ساليقان بجوار تشارلستون في ولاية كارولينا الجنوبية بالولايات المتحدة الأمريكية .

عندما قابلته أول مرة كان يعيش هناك في كوخ صغير ، ومعه خادم عجوز يدعى جويتر . لقد كان لوگران شخصاً مثقفاً يتمتع بقدرات ذهنية غير عادية مما أثار اهتمامي به بدرجة كبيرة . وقد كان يهوى القنص وصيد السمك بصورة خاصة ، كما كان مغرمًا بجمع الأصناف والحشرات .

ذهبت إلى الجزيرة لأزور صديقي بعد ظهر يوم بارد من أيام شهر أكتوبر سنة ١٨ - . وعندما وصلت إلى الكوخ طرقت الباب كعادتي ، ولكن لم يفتح لي الباب أحد ، فبحثت عن مفتاحه في المكان الذي اعتاد صديقي أن يحبته فيه . ثم فتحت ودخلت ، وقد سررتني أن وجدت المدفأة مشتعلة ، فترغت مغطفي وجلست بجوار النار في انتظار مضيي .

وصل لوگران وخادمه عند حلول الليل ورحبا بي بحرارة : أسرع جويتر ليعد بطة للعشاء ، بينما بدأ لوگران يصف لي شكل حشرة غريبة كان قد وجدها بعد ظهر ذلك اليوم ويعتقد أنها تنتمي إلى فصيلة جديدة غير معروفة .





قَالَ لُوْغْرَانُ : « جُمُجْمَةٌ ؟ آو ! نَعَمْ ! رُبَّمَا تَبْدُو كَذَلِكَ عَلَى الْوَرَقِ . إِذْ قَدْ تَبْدُو النَّقْطَتَانِ السُّودَاوَانِ كَمَا لَوْ كَانَتَا عَيْنَيْنِ ، وَالنَّقْطَةُ الطَّوِيلَةُ السُّفْلِيَّةُ كَمَا لَوْ كَانَتْ فَمًا . »

قُلْتُ : « رُبَّمَا كَانَ ذَلِكَ ، وَلَكِنَّكَ رَسَامٌ غَيْرُ مَاهِرٍ يَا لُوْغْرَانُ ! »
قَالَ مُتَضَايِقًا بَعْضَ الشَّيْءِ : « لَا ، أَوْ عَلَى الْأَقْلَ لَقَدْ كَانَ مُدْرَسُو الرِّسْمِ لَا يَعْتَبِرُونَنِي كَذَلِكَ . »

قُلْتُ : « حَسَنًا يَا صَدِيقِي ، لَا بُدَّ أَنَّكَ كُنْتَ تَمْرَحُ . إِنَّ هَذَا الرِّسْمَ صُورَةٌ رَاحَةٌ لِجُمُجْمَةٍ ، وَلَكِنَّهُ صُورَةٌ سَيِّئَةٌ لِحَشْرَةٍ . »

لَا حَظُّكَ أَنَّ لُوْغْرَانَ بَدَأَ عَلَيْهِ الْعُصْبُ ، فَأَعْطَيْتُهُ الْوَرَقَةَ مِنْ دُونِ أَنْ أُبْدِيَ

قَالَ لُوْغْرَانُ : « لَوْ كُنْتُ أَعْرِفُ أَنَّكَ هُنَا لَأَحْتَفَظْتُ بِهَا لِأَيَّامِهَا . وَلَكِنِّي قَابَلْتُ صَدِيقِي ج. . وَأَنَا فِي طَرِيقِي إِلَى هُنَا وَأَعَزَّتُهُ الْحَشْرَةُ لِيَفْخَصَهَا . إِنَّهَا ذَاتُ لَوْنٍ ذَهَبِيٍّ لَامِعٍ ، وَهِيَ فِي حَجْمِ الْبُنْدُقَةِ الْكَبِيرَةِ ، وَلَهَا نَقْطَتَانِ سَوْدَاوَانِ قُرْبَ نِهَايَةِ الظَّهْرِ ، وَنَقْطَةُ أُخْرَى أَطْوَلُ فِي الطَّرْفِ الْآخَرِ . وَيَعْتَقِدُ جُوبِيَتَرُ أَنَّ الْحَشْرَةَ مَصْنُوعَةٌ مِنَ الذَّهَبِ الْخَالِصِ ، أَمَّا أَنَا فَلَسْتُ وَاثِقًا مِنْ أَنَّهُ مُخْطِئٌ فِي ظَنِّهِ هَذَا . »

وَهُنَا تَدَخَّلَ جُوبِيَتَرُ قَائِلًا : « أَنَا مُتَأَكِّدٌ مِنْ صِحَّةِ مَا أَقُولُ ، فَلَمْ يَخْذُثْ مِنْ قَبْلِ طَوَالِ حَيَاتِي أَنْ وَجَدْتُ حَشْرَةً ثَقِيلَةً بِهَذِهِ الدَّرَجَةِ . »

قَالَ لُوْغْرَانُ : « الْحَقِيقَةُ أَنِّي لَمْ أَرِ قَطُّ مِنَ الذَّهَبِ مَا يَلْمَعُ لَمَعَانِ تِلْكَ الْحَشْرَةِ . وَلَكِنْ دَعْنِي أُعْطِكَ فِكْرَةً عَنْ شَكْلِهَا . » ثُمَّ جَلَسَ أَمَامَ مِنْضَدَةٍ ، عَلَيْهَا دَوَاةٌ وَقَلَمٌ ، وَلَكِنْ لَمْ يَكُنْ عَلَيْهَا وَرَقٌ . فَبَحَثَ عَنِ الْوَرَقِ فِي الدَّرَجِ فَلَمْ يَجِدْ مِنْهُ شَيْئًا .

قَالَ : « لَا بَأْسَ بِهَذِهِ . » وَأَخْرَجَ مِنْ جَيْبِهِ مَا كَانَ يَبْدُو وَكَأَنَّهُ وَرَقَةٌ مُتَسَيِّخَةٌ مِنْ أَوْرَاقِ الْمَذْكُورَاتِ ، وَبَدَأَ يَرَسُمُ عَلَيْهَا صُورَةَ الْحَشْرَةِ بِقَلَمِهِ . وَعِنْدَمَا أَتَتْهُي أَخْضَرَ الْوَرَقَةَ إِلَيَّ حَيْثُ كُنْتُ جَالِسًا بِجِوَارِ الْمِنْدَفَاةِ وَأَعْطَانِيهَا . وَعِنْدَمَا بَدَأْتُ أَذْرُسُ الرِّسْمَ دَخَلَ كَلْبُ لُوْغْرَانَ وَقَفَزَ عَلَى كَتِفِي وَأَخَذَ يُقْبِلُنِي ، لِأَنِّي كُنْتُ أَحَدَ الْمُحِبِّينَ إِلَيْهِ . وَعِنْدَمَا نَظَرْتُ إِلَى الْوَرَقَةِ بَعْدَ ذَلِكَ بِقَلِيلٍ خَيْرَنِي مَا رَسَمَهُ صَدِيقِي .

قُلْتُ لَهُ : « هَذِهِ حَشْرَةٌ غَرِيبَةٌ ، إِنَّهَا تَبْدُو كَمَا لَوْ كَانَتْ جُمُجْمَةً . »

أَيَّةُ مِلَاحَظَةٍ أُخْرَى . إِنَّ غَضَبَهُ أَذْهَشَنِي ، أَمَّا بِالنَّسْبَةِ لِلرَّسْمِ فَقَدْ كَانَ يُشْبِهُ
الْجُمُجْمَةَ تَمَامًا .

أَخَذَ الْوَرَقَةَ مِنِّي بِشَيْءٍ مِنَ الضَّيِّقِ ، وَكَأَنَّ يُلْقِي بِهَا فِي النَّارِ عِنْدَمَا جَذَبَ
أَنْتِبَاهَهُ شَيْءٌ مَا مُتَعَلِّقٌ بِالرَّسْمِ . وَسَرَّعَانَ مَا أَحْمَرَّ وَجْهَهُ ، ثُمَّ مَا لَيْثَ بَعْدَ
لَحْظَةٍ إِنَّ أَصْفَرَ صَفْرَةَ الْمَوْتِ . وَاصِلَ لُوْغْرَانَ فَحَصَصَهُ لِلْوَرَقَةِ عِدَّةَ دَقَائِقَ ،
وَأَخَذَ يُقْلِبُهَا مِنْ وَجْهِ لآخر دُونَ أَنْ يَقُولَ شَيْئًا . وَأَخِيرًا أَخْرَجَ ظَرْفًا مِنْ
جَيْبِ سُرَّتَرِهِ وَوَضَعَ الْوَرَقَةَ فِيهِ بِعِنَايَةٍ ، ثُمَّ وَضَعَ الظَّرْفَ فِي دُرْجِ مَكْتَبِهِ
وَأَغْلَقَهُ .

دَهَشْتُ لِتَصَرُّفِهِ الْغَرِيبِ هَذَا ، وَخَابَ أَمَلِي فِي قَضَاءِ سَهْرَةٍ مُتَمِيعَةٍ عِنْدَمَا
لَا حَظُّكَ أَسْتِغْرَاقُهُ فِي التَّفَكِيرِ فِتْرَةً طَوِيلَةً . وَعِنْدَمَا قُمْتُ أَسْتَأْذِنُ فِي الْذَّهَابِ
لَمْ يَدْعُنِي لِلْمَيْسِ عِنْدَهُ كَمَا أَعْتَادَ ذَلِكَ ، بَلْ صَافَحَنِي بِفُتُورٍ .

مَضَى مَا يَقْرُبُ مِنَ الشَّهْرِ مِنْ دُونَ أَنْ أَرَى لُوْغْرَانَ ، ثُمَّ جَاءَ جُوبَيْتَرُ
لِرِيَارَتِي فِي تَشَارِلِسْتُونِ . وَكَانَتْ الْأَخْبَارُ الَّتِي حَمَلَهَا غَيْرَ سَارَةٍ فَقَدْ أَخْبَرَنِي أَنَّ
سَيِّدَهُ مَرِيضٌ وَفِي حَاجَةٍ إِلَى الْمُسَاعَدَةِ . وَكَانَ جُوبَيْتَرُ يَعْتَقِدُ أَنَّ سَبَبَ
مَرَضِ سَيِّدِهِ لَسَعَةٌ مِنَ الْحَشْرَةِ الذَّهَبِيَّةِ أَصَابَتْهُ يَوْمَ أَنْ أَمْسَكَ بِهَا . وَقَالَ
جُوبَيْتَرُ إِنَّهُ نَجَا مِنْ نَفْسِ الْمَصِيرِ لِأَنَّهُ أَمْسَكَ الْحَشْرَةَ بِوَرَقَةٍ لِذَلِكَ لَمْ تَلْسَعَهُ .
ثُمَّ أَعْطَانِي جُوبَيْتَرُ رِسَالَةً بَعَثَ بِهَا إِلَيَّ سَيِّدُهُ لُوْغْرَانُ ، وَأَخَذْتُ أَقْرَأُهَا وَقَدْ
أَعْتَرَانِي شَيْءٌ مِنَ الْخَوْفِ .

جاء في الرسالة :

« عزيزي ... لماذا لم أرك منذ فترة طويلة ؟ لَدَيَّ بَعْضُ الْأَثْبَاءِ الَّتِي أُرِيدُ
أَنْ أُخْبِرَكَ بِهَا ، وَلَكِنِّي لَا أَعْرِفُ مَا أَقُولُهُ لَكَ ، أَمِنْ أَلَوَاجِبِ أَنْ أَقْضِي بِهَا
عِلَ الْإِطْلَاقِ ؟ »

« إِنِّي أَشْعُرُ بِوَعَكَةٍ مُنْذُ عِدَّةِ أَيَّامٍ وَأَجِدُ صُعُوبَةً كَبِيرَةً فِي التَّخَلُّصِ مِنْ
جُوبَيْتَرِ كَنِّي أَقَوْمَ يَبْغِضُ الرِّحَالَاتِ الْضَّرُورِيَّةَ وَسَطَ التَّلَالِ السَّاحِلِيَّةِ .
« أَرْجُو أَنْ تَأْتِيَ إِلَيَّ مَعَ جُوبَيْتَرِ ، إِذَا كَانَ ذَلِكَ مُمَكِّنًا . أَرْجُوكَ أَنْ
تَأْتِيَ ، فَإِنَّا أُرِيدُ أَنْ أَرَاكَ الْكَلِيلَةَ لِأَمْرِ هَامٍّ . بَلْ فِي غَايَةِ الْأَهْمِيَّةِ .

المُخْلِصُ ،

وَلَيْمَ لُوْغْرَانُ »

شَعَرْتُ بِقَلْقٍ شَدِيدٍ بَعْدَ قِرَاءَتِي الرِّسَالَةِ وَأَخَذْتُ أَسْأَلُ نَفْسِي : « بِأَيِّ شَيْءٍ
يَخْلُمُ صَدِيقِي ؟ مَا هِيَ تِلْكَ الْمَسْأَلَةُ الَّتِي فِي غَايَةِ الْأَهْمِيَّةِ ؟ أَمِنْ الْمُحْتَمَلِ أَنْ
يَكُونُ ... ؟ وَخَشِيتُ أَنْ تَكُونَ وَطْأَةُ الْكُتَابِ الْمُسْتَمِرَّةِ قَدْ دَفَعَتْهُ إِلَى خَدِّ
الْجُنُونِ . وَهَكَذَا وَجَدْتُ نَفْسِي أَسْتَعِدُّ لِلذَّهَابِ مَعَ جُوبَيْتَرِ مِنْ دُونَ أَدْنَى
رَدْدٍ .

لَا حَظُّكَ أَنَّ جُوبَيْتَرُ كَانَ يَحْمِلُ مَعَهُ ثَلَاثَ مَجَارِفَ قَالَ إِنَّ لُوْغْرَانَ قَدْ
طَلَّبَ مِنْهُ أَنْ يَشْتَرِيَهَا مِنْ تَشَارِلِسْتُونِ ، وَلَمْ يَعْرِفْ جُوبَيْتَرُ الْعَجُوزُ لِمَاذَا
طَلَّبَ مِنْهُ لُوْغْرَانُ شِرَاءَهَا . قَالَ لِي : « إِنَّهَا الْحَشْرَةُ يَاسِيدِي ، وَكُلُّ هَذَا
الْهَرَاءِ سَبَبُهُ الْحَشْرَةُ . »

وَصَلْنَا إِلَى الْكُوْخِ السَّاعَةِ الثَّالِثَةِ بَعْدَ الظُّهْرِ ، وَكَانَ وَجْهُ لُوْغْرَانِ شَاحِبًا

بدرجة كبيرة ، وَيَبْدُو عَلَيْهِ الْإِرْهَاقُ الشَّدِيدُ . وَكَانَتْ عَيْنَاهُ السَّمَرَاوَانِ
لِلْمَعَانِ لَمَعَانًا غَرِيبًا غَيْرَ طَبِيعِي . وَعِنْدَمَا سَمِعَتْ كَلِمَاتِهِ الْأُولَى دَقَّ قَلْبِي دَقًّا
غَنِيًّا .

قَالَ فِي ثَبْرَةٍ جَادَّةٍ : « مَا قَالَهُ جُوبِيْتَرُ عَنِ الْحَشْرَةِ صَحِيحٌ . إِنَّهَا مِنْ
الذَّهَبِ الْخَالِصِ ، وَسَوْفَ تُكُونُ السَّبَبُ فِي حُصُولِي عَلَى ثَرْوَةٍ طَائِلَةٍ . »

سَأَلْتُهُ فِي حُزْنٍ : « كَيْفَ سَيَكُونُ ذَلِكَ ؟ »

لَمْ يُجِبْنِي ، بَلْ ذَهَبَ إِلَى صُنْدُوقِ رُجَاجِي بِجَوَارِ الْحَائِطِ ثُمَّ جَاءَ بِالْحَشْرَةِ
إِلَيَّ . لَقَدْ كَانَتْ فِي غَايَةِ الْجَمَالِ ، وَلَمْ تُكُنْ مَعْرُوفَةً لِلْعُلَمَاءِ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ .
كَمَا كَانَتْ ثَقِيلَةً وَبَدَتْ - مِنْ دُونِ شَكٍّ - كَمَا لَوْ كَانَتْ مَصْنُوعَةً مِنْ
الذَّهَبِ مِمَّا جَعَلَ رَأْيَ جُوبِيْتَرِ مَعْقُولًا . وَلَكِنْ لَمْ أَفْهَمْ سَبَبَ مُوَافَقَةِ لُوغِرَانَ
عَلَى رَأْيِ الْخَادِمِ .

قُلْتُ لَهُ : « يَا صَدِيقِي الْعَزِيزُ ، إِنْ صَحَّحْتَكَ لَيْسَتْ عَلَى مَا يُرَامُ وَ ... »

قَاطَعَنِي قَائِلًا : « أَنْتَ مُخْطِئٌ فِي هَذَا ؛ أَنَا فِي أَثَمِّ صِحَّةٍ ، إِذَا وَضَعْنَا فِي
الْإِغْتِبَارِ مَا أَعَانِيهِ مِنْ تَوَثُّرٍ وَانْفِعَالٍ . إِذَا كُنْتُ تُرِيدُ حَقِيقَةً أَنْ أَسْتَعِيدَ كَامِلَ
صِحَّتِي فَعَلَيْكَ أَنْ تُخَفِّفَ عَنِّي مَا أَعَانِيهِ مِنْ تَوَثُّرٍ . »

« كَيْفَ يُمَكِّنُنِي أَنْ أَفْعَلَ ذَلِكَ ؟ »

« بِمُنْتَهَى السُّهُولَةِ ، سَوْفَ نَذْهَبُ - أَنَا وَجُوبِيْتَرُ - فِي رِحْلَةٍ إِلَى
الْتَّلَالِ ، وَسَوْفَ نَحْتَاجُ إِلَى مُسَاعَدَةِ شَخْصٍ نَثِقُ فِيهِ . وَسَوَاءٌ أُنَجِّحْنَا أَمْ

فَلْنَلْنَا فِي تَحْقِيقِ هَدَفِنَا ، فَسَوْفَ أَتَخَلَّصُ عَلَى الْأَقْلَ مِنْ هَذَا التَّوَثُّرِ الَّذِي أَعَانِي
بِهِ . »

أَجَبْتُهُ : « كَمْ أَوْدُ أَنْ أُقَدِّمَ لَكَ آيَةً مُسَاعَدَةً تَطْلُبُهَا ، وَلَكِنِّي أَعْتَقِدُ أَنَّكَ
مُخْطِئٌ فِيمَا قُلْتَهُ عَنِ الْحَشْرَةِ ، وَأُرِيدُ أَنْ تُعَدِّنِي بِشَرْفِكَ أَنْ تَعُودَ مَعِيَ إِلَى
الْكُوْخِ بَعْدَ انْتِهَاءِ هَذِهِ الرِّحْلَةِ ، وَتُقَدِّمَ مَا أَقْدَمُهُ لَكَ مِنْ نُصْجٍ كَمَا لَوْ كُنْتُ
طَبِيبُكَ . »

قَالَ لُوغِرَانُ : « نَعَمْ ، أَعِدْكَ . وَالْآنَ فَلْنَذْهَبْ ، فَلَيْسَ عِنْدَنَا وَقْتُ
الضَّيْعَةِ . »

سَبَرْتُ مَعَ صَدِيقِي حَزِينَ الْقَلْبِ ، وَبَدَأْنَا رِحْلَتَنَا السَّاعَةَ الرَّابِعَةَ وَكُنَّا أَرْبَعَةً
أَنَا وَلُوغِرَانُ وَجُوبِيْتَرُ وَالْكَلْبُ . وَكَانَ جُوبِيْتَرُ يَحْمِلُ الْمَجَارِفَ الثَّلَاثَ ،
وَكَُنْتُ أَنَا أُحْمِلُ مِصْبَاحَيْنِ . أَمَّا لُوغِرَانُ فَلَمْ يَأْخُذْ مَعَهُ إِلَّا الْحَشْرَةَ الذَّهَبِيَّةَ
بَعْدَ أَنْ رَبَطَهَا بِخَيْطٍ طَوِيلٍ ، وَكَانَ يُطَوِّحُ بِهَا يَمْنَةً وَيَسْرَةً أَثْنَاءَ سَيْرِهِ .
وَأَنَسَابَتِ الدُّمُوعُ مِنْ عَيْنَيَّ وَأَنَا أَرَى الدَّلِيلَ الْأَخِيرَ عَلَى آخِثِلَالِ عَقْلِ
صَدِيقِي .

سَبَرْنَا إِلَى بَرِّ الْجَزِيرَةِ الرَّئِيسِيِّ ، ثُمَّ اتَّجَهْنَا نَحْوَ الشَّمَالِ الْغَرْبِيِّ . وَبَعْدَ
مَسِيرَةِ سَاعَتَيْنِ تَقْرِيبًا وَصَلْنَا إِلَى أَرْضٍ مُرْتَفِعَةٍ وَمُنْبَسِطَةٍ مُحَاطَةٍ بِالْإِغَابَاتِ
وَالْأَرْضِ الْمُعْشِيَةِ ، وَكَانَتْ الشَّمْسُ قَدْ آذَنْتْ بِالْمَغِيبِ . وَاتَّجَهَ لُوغِرَانُ
رَأْسًا نَحْوَ شَجَرَةٍ كَانَتْ قَائِمَةً مَعَ ثَمَانِي أَوْ عَشْرِ أَشْجَارٍ أُخْرَى وَسَطَ هَذِهِ
الْأَرْضِ الْمُتَبَسِّطَةِ . وَكَانَتْ تِلْكَ الشَّجَرَةُ أَطْوَلَ مِنَ الْأَشْجَارِ الْأُخْرَى وَأَكْثَرَ

مِنْهَا جَمَالًا ، وَكَانَتْ فُرُوعُهَا مُمتَدَّةً إِلَى كُلِّ جَانِبٍ نَاشِئَةً ظِلَالُهَا عَلَى
الْأَشْجَارِ الْمُجَاوِرَةِ . وَعِنْدَمَا وَصَلْنَا إِلَى تِلْكَ الشَّجَرَةِ ، اتَّجَهَ لُؤْغَرَانُ نَحْوَ
جُوبَيْتَرِ وَسَأَلَهُ إِذَا كَانَ فِي وَسْعِهِ أَنْ يَتَسَلَّقَهَا . وَبَدَأَ أَنْ هَذَا الِطَّلَبُ قَدْ أَذْهَشَ
الرَّجُلَ الْعَجُوزَ ، وَلِهَذَا ظَلَّ صَامِتًا لِحَظَّةٍ ثُمَّ أَجَابَ فِي الْنَهَايَةِ بَعْدَ أَنْ نَظَرَ
بِعَيْنَايَةِ إِلَى الشَّجَرَةِ : « نَعَمْ ، يُمَكِّنُنِي أَنْ أَسْلُقَهَا . إِلَى أَيِّ أَرْتِفَاعٍ تُرِيدُنِي أَنْ
أَسْلُقَهَا ؟ »

قَالَ : « تَسْلُقُ الْجَذْعَ أَوَّلًا ، وَسَوْفَ أَخْبِرُكَ أَيَّ اتِّجَاهٍ تَأْخُذُ وَأَيْنَ
تَتَوَقَّفُ . تَحِذُ الْحَشْرَةَ مَعَكَ . »

قَالَ جُوبَيْتَرُ بِشَيْءٍ مِنَ الْإِسْتِزَارِ : « تَعْنِي الْحَشْرَةُ الذَّهَبِيَّةُ يَا سَيِّدِي ،
لِمَاذَا آخُذُهَا ؟ »

قَالَ لُؤْغَرَانُ : « نَفَّذَ مَا أَقُولُهُ لَكَ . » ثُمَّ أَعْطَاهُ الْخَيْطَ الَّذِي رُبِطَتْ
الْحَشْرَةُ فِيهِ . « وَالْآنَ ، أَبْدَأُ فِي تَسْلُقِ الشَّجَرَةِ . »

أَمْسَكَ الْخَادِمُ بِالْخَيْطِ مُرْغَمًا ، وَبَدَأَ يَتَسَلَّقُ . وَلَمْ يَكُنْ هَذَا الْجُزْءُ مِنَ
الْمِهْمَةِ الْعَرَبِيَّةِ أَمْرًا عَسِيرًا ؛ ذَلِكَ أَنَّ الشَّجَرَةَ كَانَتْ كَبِيرَةً وَلَمْ يَكُنْ جَذْعُهَا
مُسْتَوِيًا ؛ مِمَّا جَعَلَ بِهِ عَدَدًا مِنَ التَّجَاوِيفِ الَّتِي مَكَّنَتْ الْخَادِمَ مِنْ تَثْبِيتِ قَدَمَيْهِ
بِهَا . وَهَكَذَا أَصْبَحَ جُوبَيْتَرُ عَلَى بُعْدِ عِشْرِينَ مِثْرًا تَقْرِيبًا مِنَ الْأَرْضِ وَلَمْ تَمُضِ
إِلَّا دَقَائِقُ قَلِيلَةٌ .

صَاحَ لُؤْغَرَانُ : « وَاصِلُ تَسْلُقِ الْجَذْعَ إِلَى أَنْ تُصِلَ الْفَرْعَ السَّابِعَ . »



بَعْدَ دَقَائِقَ قَلِيلَةٍ سَمِعْنَا جُوبَيْتَرَ يَقُولُ إِنَّهُ عَدَّ سِتَّةَ فُرُوعٍ أَسْفَلَ الْفَرْعِ الَّذِي
يَجْلِسُ عَلَيْهِ .

قَالَ لَهُ لُوْغَرَانُ بِحِمَاسٍ شَدِيدٍ : « الْآنَ يَا جُوبَيْتَرَ ، تَسْلُقُ هَذَا الْفَرْعَ إِلَى
أَقْصَى قَدْرِ مُمَكِّنٍ وَأُخْبِرْنِي بِأَيِّ شَيْءٍ غَرِيبٍ تَرَاهُ . »

عِنْدَمَا سَمِعْتُ تِلْكَ الْكَلِمَاتِ قُلْتُ فِي نَفْسِي وَالْحُزْنَ يَمَلَأُ جَوَانِحِي :
« إِنَّهُ لَمْ يَعُدْ هُنَاكَ أَدْنَى شَيْءٍ فِي أَنْ صَدِيقِي قَدْ جُنَّ . »

وَتَمَلَّكَنِي رَغْبَةٌ شَدِيدَةٌ فِي أَنْ أَخُذَهُ إِلَى الْبَيْتِ . وَآتَيْنَا تَفْكِيرِي فِي
الْأَسْلُوبِ الْأَمْثَلِ الَّذِي يُمَكِّنُنِي أَنْ أَتَّبِعَهُ سَمِعْتُ صَوْتَ جُوبَيْتَرَ مَرَّةً أُخْرَى
يَقُولُ : « أَنَا مُسْتَعِيرٌ فِي التَّسْلُقِ يَا سَيِّدِي وَسَوْفَ أَصِلُ قَرِيبًا إِلَى .. آه ..
رَحِمَتِكَ يَا رَبِّ . مَا هَذَا الَّذِي أَرَاهُ ؟ »

صَاحَ لُوْغَرَانُ وَقَدْ أَتَتْهُ بِهِ الْفَرْحُ : « حَسَنًا مَاذَا تَرَى ؟ »

قَالَ جُوبَيْتَرَ : « إِنَّهَا جُمُجُمَةٌ وَهِيَ مُثَبَّتَةٌ فِي الشَّجَرَةِ بِمَسَامِيرٍ . »

قَالَ لُوْغَرَانُ : « حَسَنًا يَا جُوبَيْتَرَ ! افْعَلْ مَا أَقُولُهُ لَكَ بِالضَّبْطِ . هَلْ
تَسْمَعُنِي ؟ »

« نَعَمْ يَا سَيِّدِي . »

« إِنِّي لَمَّا أَقُولُهُ لَكَ . عَلَيْكَ بِالْعَيْنِ الْيُسْرَى لِلْجُمُجُمَةِ وَدَعْ الْحَشْرَةَ
تَسْقُطُ مِنْهَا فِي اتِّجَاهِ الْأَرْضِ إِلَى أَقْصَى مَا يَصِلُ إِلَيْهِ الْخَيْطُ . وَلَكِنْ كُنْ
حَرِيصًا وَلَا تَتْرِكِ الْخَيْطَ يُفْلِتُ مِنْ يَدِكَ . »

« الْعَيْنُ الْيُسْرَى يَا سَيِّدِي ؟ نَعَمْ وَجَدْتُهَا . إِنَّهُ مِنَ الْكَسْهِلِ أَنْ أُجْعَلَ
الْحَشْرَةَ تَسْقُطُ مِنْ تَحْوِيفِ الْعَيْنِ هَذَا . هَلْ يُمَكِّنُكَ أَنْ تَرَاهَا وَقَدْ سَقَطَتْ إِلَى
أَسْفَلِ ؟ »

بَدَأْنَا الْآنَ نَرَى الْحَشْرَةَ تَلْمَعُ فِي طَرَفِ الْخَيْطِ وَكَأَنَّهَا كُرَةٌ مِنَ الذَّهَبِ
تَلَأُلُ فِي أَشِعَّةِ شَمْسِ الْغُرُوبِ . قَامَ لُوْغَرَانُ عَلَى الْفُورِ بِالْإِمْسَاكِ بِمِجْرَفَةٍ
وَأَخَذَ يُنْظِفُ بِهَا مِسَاحَةً دَائِرِيَّةً قَطَرُهَا ثَلَاثَةُ أَمْتَارٍ أَوْ أَرْبَعَةٌ فِي الْمِنْطَقَةِ الَّتِي تَقَعُ
تَحْتَ الْحَشْرَةِ تَمَامًا . ثُمَّ أَمَرَ جُوبَيْتَرَ أَنْ يَتْرِكَ الْخَيْطَ يَسْقُطُ وَأَنْ يَنْزِلَ هُوَ مِنْ
فَوْقِ الشَّجَرَةِ .

وَضَعَ صَدِيقِي عَصَا فِي نَفْسِ النُّقْطَةِ الَّتِي وَقَعَتِ الْحَشْرَةُ عَلَيْهَا ، وَضَعَطَ
طَرَفَ الْعَصَا لِتَنْفُذِ فِي الْأَرْضِ . ثُمَّ أَخْرَجَ مِنْ جَيْبِهِ شَرِيطَ قِيَاسٍ وَرَبَطَ طَرَفًا
مِنْهُ بِأَقْرَبِ جُزْءٍ مِنْ جَذْعِ الشَّجَرَةِ ، ثُمَّ بَسَطَ الشَّرِيطَ إِلَى أَنْ وَصَلَ إِلَى
الْعَصَا . ثُمَّ أَسْتَمَرَّ بَعْدَ ذَلِكَ لِمَسَافَةٍ تُرِيدُ عَلَى سِتَّةَ عَشَرَ مِثْرًا وَنِصْفَ الْمِثْرِ .
وَكَانَ جُوبَيْتَرَ يَسِيرُ أَمَامَهُ مُفْسِحًا طَرِيقًا لَهُ وَلِلشَّرِيطِ مُسْتَعِدًّا الْمِجْرَفَةَ . عِنْدَ
النُّقْطَةِ الَّتِي وَصَلَ إِلَيْهَا ، جَاءَ لُوْغَرَانُ بِعَصَا أُخْرَى وَغَرَسَهَا فِي الْأَرْضِ ، ثُمَّ
بَدَأَ فِي تَنْظِيفِ الْأَرْضِ حَوْلَ الْعَصَا فِي دَائِرَةٍ قَطَرُهَا مِثْرٌ وَرُبْعُ الْمِثْرِ . وَأَمْسَكَ
لُوْغَرَانُ بِمِجْرَفَةٍ وَأَعْطَانِي مِجْرَفَةً وَأَعْطَى جُوبَيْتَرَ مِجْرَفَةً أُخْرَى ، وَطَلَبَ مِنَّا
أَنْ نَحْفِرَ عَلَى الْفُورِ .

وَالْحَقِيقَةُ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لَدَيَّ أَيُّ رَغْبَةٍ فِي الْقِيَامِ بِأَيِّ عَمَلٍ آخَرَ . وَكَانَ
يُودِي أَنْ أَرْفُضَ ذَلِكَ لَوْ أَسْتَطَعْتُ مِنْ دُونِ أَنْ أَضَاقَ صَدِيقِي الْمِسْكِينَ .

وَلَكِنَّهُ كَانَ مُتَحَمِّسًا جَدًّا ، وَرَأَيْتُ مِنْ الْحِكْمَةِ أَنَّ أُمْسِكَ بِالْمَجْرَفَةِ
وَأُظَاهَرَ عَلَى الْأَقْلُ بِالتَّعَاطُفِ مَعَهُ .

وَاصْلْنَا الْحَفَرَ فِي ضَوْءِ الْمَصْبَاحِ لِمُدَّةِ سَاعَتَيْنِ ، وَبَلَغَ عُمُقُ الْحُفْرَةِ مِثْرَيْنِ
تَقْرِيبًا مِنْ دُونَ أَنْ يَصِلَ إِلَى شَيْءٍ غَيْرِ الْحَصَى وَالرَّمْلِ . وَتَوَقَّفْنَا عَنِ الْحَفْرِ ،
وَبَدَأْتُ أُمْنِي النَّفْسَ أَنَّ هَذَا الْهَرَاءَ قَدْ وَصَلَ إِلَى نِهَائِهِ ، وَلَكِنَّ لُوغِرَانَ مَسَحَ
وَجْهَهُ وَهُوَ غَارِقٌ فِي التَّفَكِيرِ ثُمَّ أُمْسَكَ بِالْمَجْرَفَةِ مَرَّةً أُخْرَى ، وَبَدَأَ يَحْفِرُ
ثَانِيَةً عَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّ عِلَامَاتِ خَبِيئَةِ الْأَمَلِ قَدْ ظَهَرَتْ وَاضِحَةً عَلَى وَجْهِهِ .

حَفَرْنَا جَوَانِبَ الدَّائِرَةِ كُلِّهَا ، ثُمَّ عَمَقْنَا الْحُفْرَةَ بِمِقْدَارِ قَدَمَيْنِ أُخْرَتَيْنِ .
وَمَعَ ذَلِكَ لَمْ يَظْهَرْ مَا يَجْذِبُ النَّظَرَ . وَأَخِيرًا تَسَلَّقَ صَدِيقِي جَانِبَ الْحُفْرَةِ ،
وَوَقَفَ قَوْقَهَا وَقَدْ ظَهَرَتْ عَلَيْهِ عِلَامَاتُ الْهَزِيمَةِ الْمَرِيرَةِ . وَلَيْسَ سِتْرَتُهُ فِي
بُطْنٍ ، وَجَمَعَ جُوبَيْتَرُ أَذْوَاتِ الْحَفْرِ وَقَفَلْنَا رَاجِعِينَ وَقَدْ خِيمَ عَلَيْنَا صَتَتْ
مُطْبِقٌ .

لَمْ نَكُذْ نَمْضِي بِضَعِ خُطَوَاتٍ فِي طَرِيقِ عَوْدَتِنَا حَتَّى أُمْسَكَ لُوغِرَانَ
بِتَلَايِبِ جُوبَيْتَرٍ وَصَاحَ فِيهِ قَائِلًا : « أَيُّهَا الْغَيْيُّ ! أَيُّهَا الشَّخْصُ الَّذِي لَا
يَصْلُحُ لِشَيْءٍ ! تَكَلَّمْ ! أَجِبْ عَنْ سُؤَالِي عَلَى الْفَوْرِ : أَيُّ عَيْنَيْكَ هِيَ الْعَيْنُ
الْيُسْرَى ؟ »

صَاحَ الرَّجُلُ الْعَجُوزُ : « آه يَا سَيِّدِي ، أَلَيْسَتْ هَذِهِ هِيَ عَيْنِي
الْيُسْرَى ؟ » ثُمَّ وَضَعَ يَدَهُ عَلَى عَيْنِهِ الْيُمْنَى ، وَظَلَّ مُحْتَفِظًا بِهَا هَكَذَا كَأَنَّمَا
يَخْشَى أَنْ يَقُومَ سَيِّدُهُ بِاقْتِلَاعِ الْعَيْنِ مِنْ مَكَانِهَا .

صَاحَ لُوغِرَانُ : « لَقَدْ تَوَقَّعْتُ ذَلِكَ ، وَعَرَفْتُ كُلَّ شَيْءٍ . مَرْحَى !
مَرْحَى ! تَعَالِيَا يَجِبُ أَنْ نَعُودَ . » ثُمَّ تَحَدَّثَ بِهَدْوٍ أَكْثَرَ مُسْتَفْسِرًا : « مِنْ
أَيِّ عَيْنٍ أَسْقَطْتَ الْحَشْرَةَ ، مِنْ هَذِهِ الْعَيْنِ أَمْ مِنْ هَذِهِ ؟ » وَوَضَعَ يَدَهُ عَلَى
عَيْنِي الرَّجُلِ الْمُسْكِنِ الْوَاحِدَةِ بَعْدَ الْأُخْرَى .

أَجَابَ الرَّجُلُ : « مِنْ هَذِهِ الْعَيْنِ يَا سَيِّدِي - الْعَيْنِ الْيُسْرَى - تَمَامًا كَمَا
مَلَئْتَ يَمْنِي . » وَوَضَعَ يَدَهُ مَرَّةً أُخْرَى عَلَى عَيْنِهِ الْيُمْنَى .

قَالَ لُوغِرَانُ : « هَذَا يَكْفِي ! يَجِبُ أَنْ نُعِيدَ الْمُحَاوَلَةَ . »

رَجَعْنَا إِلَى الشَّجَرَةِ ، وَنَقَلَ صَدِيقِي الْعَصَا ، الَّتِي كَانَ قَدْ غَرَسَهَا فِي
الْأَرْضِ فِي الْمَكَانِ الَّذِي وَقَعَتِ الْحَشْرَةُ عَلَيْهِ ، إِلَى مَكَانٍ جَدِيدٍ غَرَسَهَا فِيهِ
بَعْدَ حَوَالِي ثَمَانِيَةِ سِتِّ مِثْرَاتٍ غَرْبِيَّ مَكَانِهَا السَّابِقِ . وَأَخَذَ شَرِيطَ الْقِيَاسِ
وَقَاسَ الْمَسَافَةَ بَيْنَ الشَّجَرَةِ وَالْعَصَا ، وَاسْتَمَرَّ فِي خُطِّ مُسْتَقِيمٍ إِلَى مَسَافَةِ سِتَّةِ
عَشَرَ مِثْرًا وَنِصْفَ الْمِثْرِ . وَبِذَلِكَ وَصَلْنَا إِلَى مَكَانٍ يَبْعُدُ عِدَّةَ أَمْتَارٍ عَنِ الْحُفْرَةِ
الَّتِي كُنَّا قَدْ حَفَرْنَاهَا . وَقَامَ لُوغِرَانُ بِعَمَلِ دَائِرَةٍ أُخْرَى حَوْلَ النَّقْطَةِ
الْجَدِيدَةِ ، ثُمَّ بَدَأْنَا الْحَفَرَ مَرَّةً أُخْرَى .

أَخَذْنَا نَحْفِرُ صَامِتَيْنِ لِمُدَّةِ سَاعَةٍ وَنِصْفِ السَّاعَةِ تَقْرِيبًا عِنْدَمَا قَاطَعْنَا
الْكَلْبُ بِبُيَاحِهِ الْكَثِيدِ ، ثُمَّ أُنْدَفَعَ فَجَاءَةً نَحْوَ الْحُفْرَةِ وَأَخَذَ يَحْفِرُ بِرِجْلَيْهِ
الْأَمَامِيَّتَيْنِ وَكَأَنَّمَا قَدْ أَصَابَهُ مَسٌّ مِنَ الْجُنُونِ . وَبَعْدَ ثَوَانٍ قَلِيلَةٍ رَأَيْنَا كُتْلَةً مِنْ
الْعِظَامِ الْبَشَرِيَّةِ لِشَخْصَيْنِ . وَكَانَتْ تِلْكَ الْعِظَامُ مَخْلُوطَةً بِمَا يُشَبِّهُ الرَّمَادَ
الَّذِي يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ نَتِيجَةُ تَحْلُلِ مَلَابِسِ الْكَمِيَّتَيْنِ . وَبَعْدَ أَنْ رَفَعْنَا بَعْضَ

الآثرية وحذا نصل سكر كيرة ، ثم واصلنا الحفر ، وبعد قليل لمعت في ضوء المصباح بضئ قطع من العملة الذهبية والفضية .

أهاب بنا لو غران أن نواصل الحفر ، وما كاذ ينتهي من حديه حتى ظهرت حلقة حديدية كبيرة ، وسرعان ما اكتشفنا أن هذه الحلقة مخصصة بصندوق خشبي كبير . فواصلنا العمل محد وشايط وكالت الدقائق العشر التالية من أكثر أوقات حياتي إثارة . كان طول الصندوق مترا ، وعرضه تسعين سنتيمترا ، وارتفاعه خمسة وسبعين سنتيمترا . وكالت الحلقة التي ظهرت لنا في البداية واحدة من سبب حلقات كل ثلاث منها في جانب بحيث يقوم ستة أفراد بحمل الصندوق . ولم نتمكن نحن من زخرفة الصندوق إلى أكثر من ستمترين ، ولكن من حسن حظنا أن عطاء الصندوق لم يكن مغلقا إلا بمرآحس ، فلما حدناهما إلى الحلف أمكسا أن يفتح الصندوق . وبعد لحظة وحذا أمامنا كرا لا يقدر شمس ، وكان ضوء المصباح يعكس على أكوام الذهب والحواهر ويرسل من ألومبيض ما لا تقدر أعينا على النظر إليه لفترة طويلة .

لا يمكنني أن أصف مشاعريا ونحن نرى ما رأينا . لقد وفقا من دون كلمة أو حراك لمدة دقيقتين فيما اعتقد : ثم حثا جوبير على ركبته وكأنه في حلم . وأدخل ذراعته حتى كتفه في الذهب والحواهر وقال في هدوء : « هذا كله قد جاءت به الحشرة الذهبية ؟ كل هذا من الحشرة الذهبية ! » أصبح إزاما علينا أن نفكر في طريقة نقل بها هذا الكثير قبل أن يصبح

الصَّاحُ . فَنَاقَشْنَا فِي ذَلِكَ ، وَفَرَرْنَا بَعْدَ فِتْرَةٍ وَجِيزَةٍ مِنَ الْمُنَاقَشَةِ أَنْ نُحْمَفَ
الْصُّنْدُوقَ بِأَنْ نَتَّقَلَ مِنْهُ أَكْثَرَ مِنْ بَصِيفِ الْقِطْعِ الْكَبِيرَةِ وَنَقُومَ بِتَحْبِيبَتِهَا وَسُطِّ
الْأَغْشَابِ . وَلَمَّا أُنْخِزْنَا ذَلِكَ ، تَرَكْنَا الْكَلْبَ لِيَحْرُسَهَا ثُمَّ أَسْرَعْنَا بِالْصُّنْدُوقِ
وَوَصَلْنَا بِهِ إِلَى الْكُوجِ السَّاعَةِ الْوَاحِدَةِ صَاحًا بَعْدَ رَحْلَةٍ شَاقَّةٍ لِلْعَايَةِ . ثُمَّ
أَخَذْنَا رَاحَتَنَا حَتَّى الثَّانِيَةِ وَتَنَاوَلْنَا الْعِشَاءَ ، وَرَحَعْنَا بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى التَّلَالِ وَمَعَا
ثَلَاثَ حَقَائِبَ مَتَبَّةٍ ، فَوَصَلْنَا إِلَى مَكَابِ الْكَثْرِ قَبْلَ السَّاعَةِ الرَّابِعَةِ . عِنْدَئِذٍ قُمْنَا
بِتَقْسِيمِ مَا تَبَقِيَ مِنْهُ إِلَى ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ مُتَسَاوِيَةٍ تَقْرِينًا ، وَوَضَعْنَا كُلَّ قَسَمٍ فِي
حَقِيْقَةٍ ، وَحَمَلْنَا كُلُّ وَاحِدٍ مِمَّا حَقِيْقَةً ، وَقَمَلْنَا رَاجِعِينَ لِنَصِلَ إِلَى الْكُوجِ لِلْمَرَّةِ
الثَّانِيَةِ وَقَدْ أَوْشَكَ نَوْرُ الصَّبَاحِ عَلَى الظُّهُورِ مِنْ نَعِيدِ .

أَخَذْنَا قَدْرًا آخَرَ مِنَ الرَّاحَةِ ، ثُمَّ قُمْنَا بِمُخَصِّصِ قِطْعِ الْكَثْرِ وَفَرَرْنَا بِعَايَةِ
كَبِيرَةٍ ، فَوَجَدْنَا أَنَا بِنَتْلِكَ ثَرَوَةً نَاقَتْ فِي صَخَامَتِهَا كُلَّ مَا تَحِيلُنَاهُ . فَقَدْ كَانَ
عَدَدُ الْعُمَلَاتِ يَفُوقُ أَرْبَعِمِئَةِ وَخَمْسِينَ أَلْفَ دُولَارٍ . وَلَمْ تَكُنْ بِالْمُجَوَهَّرَاتِ
قِطْعَةً وَاحِدَةً مِنَ الْمَصْنُوعَةِ ، بَلْ كَانَتْ كُلُّهَا مِنَ الذَّهَبِ الْمُتَنَوِّعِ الْأَشْكَالِ الَّذِي
يَرْجِعُ صَنْعُهُ إِلَى أَرْمَابٍ قَدِيمَةٍ ، وَكَانَتْ هُنَاكَ نَقُودٌ مِنْ مُخْتَلِفِ دُولِ أَوْرُتَا .
وَكَانَ مِنَ الصَّعْبِ تَحْدِيدُ قِيَمَةِ مَا يَخْتَوِيهِ الْكَثْرُ مِنَ الْجَوَاهِرِ وَالْأَلْمَاسِ
وَاللَّالِي ، وَمَا إِلَيْهَا وَمِقَاتِ الْحِلْيَةِ الذَّهَبِيَّةِ ، وَكَانَ إِجْمَالِي وَزْنُهَا حَوَالِي مِئَةِ
وَأَمَانِينَ كِيلُو غَرَامًا . وَلَا يَشْمَلُ هَذَا الرِّقْمُ وَزْنَ مِئَةٍ وَسِتِّ وَتِسْعِينَ سَاعَةً
ذَهَبِيَّةً حَمِيلَةً ، مِنْهَا ثَلَاثُ يَقْدَرُ ثَمَنُ الْوَاحِدَةِ مِنْهَا بِخَمْسِمِئَةِ دُولَارٍ . وَقَدْ
قَدَّرْنَا قِيَمَةَ الْكَثْرِ كُلِّهِ بِحَوَالِي مِائَتَيْ دُولَارٍ وَبِصِيفِ الْمِائِيَةِ وَلَكِنَّا وَجَدْنَا
نَعْدَ ذَلِكَ أَنَّ الْقِيَمَةَ الْحَقِيقِيَّةَ كَانَتْ أَكْثَرَ بِكَثِيرٍ .

فِي الْكَلْبَةِ الثَّانِيَةِ حَكَى لِي لُوعَرَانُ قِصَّةَ ذَلِكَ الْحَدَثِ الْغَرِيبِ . قَالَ :
« أَتَذْكُرُ بِنْتَ الْوَرَقَةِ الَّتِي رَسَمْتُ لَكَ عَلَيْهَا صُورَةَ الْحَشْرَةِ ؟ »
سَأَلْتُهُ . « الْحَشْرَةُ الَّتِي كَانَتْ تَبْدُو كَحُمُحْمَةٍ ؟ »

أَجَابَ : « نَعَمْ ، لَقَدْ كَانَتْ بِنْتُ الْوَرَقَةِ فِي حَقِيقَةِ الْأَمْرِ قِطْعَةً مِنَ الْجِلْدِ
الرَّقِيقِ . وَعِنْدَمَا أَعَدْتُهَا إِلَيَّ وَجَدْتُ صُورَةَ حُمُحْمَةٍ فِي الْمَكَانِ الَّذِي رَسَمْتُ
بِهِ صُورَةَ الْحَشْرَةِ . وَلَكِنْ عِنْدَمَا قَلَبْتُ الْوَرَقَةَ وَحَدْتُ الرَّسْمَ الَّذِي رَسَمْتُهُ
عَلَى الْوَجْهِ الْآخَرِ بِقِطْعَةِ الْجِلْدِ . فَوَجَدْتُ أَمَامِي لُغْرًا مُخِيرًا ، ذَلِكَ أَنِّي
كُنْتُ مُتَاكِدًا عِنْدَمَا قُمْتُ بِرِسْمِ الْحَشْرَةِ أَنَّ وَجْهِي قِطْعَةً مِنَ الْجِلْدِ كَانَا حَالِيئًا
مِنْ أَيْ رَسْمٍ .

« وَحَاوَلْتُ فِي بِنْتُ الْكَلْبَةِ أَنْ أُحِلَّ هَذَا اللَّغْزُ بَعْدَ أَنْ حَرَحْتُ أَنَّ وَجْهًا
هُوَ يَتَرَفَعُ فِي نَوْمِهِ . وَتَذَكَّرْتُ أَنِّي كُنْتُ قَدْ وَجَدْتُ قِطْعَةً مِنَ الْجِلْدِ بِنْتُ
مَا كَانَتْ مَطْمُورَةً إِلَى بَصِيفِهَا فِي الرَّمْلِ بِجَوَارِ الْمَكَانِ الَّذِي وَجَدْنَا
الْحَشْرَةَ فِيهِ . وَكَانَ جُوبِيَتَرُ قَدْ أَخَذَ بِنْتُ الْقِطْعَةِ مِنَ الْجِلْدِ لِيَمْسِيَتْ بِهَا
« حَشْرَةُ حَشِيَّةٌ أَنْ تَلْسَعَهُ » وَقَدْ وَضَعْتُ الْحَشْرَةَ فِي قِطْعَةِ الْجِلْدِ وَلَقَقْتُهَا بِهَا
« مَسَّهَا إِلَى أَنْ قَاتَلْنَا صَدِيقِي ح . . . وَلَا تَذْكُرُ أَنِّي وَضَعْتُ قِطْعَةَ الْجِلْدِ فِي خِيَمِي
مِنْ دُونِ تَفَكُّيرٍ نَعْدَ أَنْ أَعَرْتُ صَدِيقِي الْحَشْرَةَ .

« عِنْدَمَا فَكَّرْتُ فِيمَا حَدَثَ تَفَكُّيرًا غَمِيضًا تَذَكَّرْتُ حَقِيقَةَ غَرِيبَةٍ ، وَهِيَ
أَنْ لَاحِظْتُ فِي الْمَكَانِ الَّذِي وَجَدْتُ الْحَشْرَةَ فِيهِ بَقَايَا قَارِبٍ تَابِعٍ لِنَسِيمَةِ
الْوَيْلِ . وَلَمْ يَتَّقَ مِنْ هَذَا الْقَارِبِ إِلَّا بَصْنَعِ قِطْعٍ مِنَ الْحَشَبِ مُلْقَاهُ عَلَى

الشاطئ .. ربما تعتقد أن الخيال قد جمع لي ، ولكن شيئاً ما يربط هذه الأشياء : هناك حطام القارب وبحواره قطعة من الجلد أو الورق مرسوم عليها صورة جمجمة . أنت تعرف بالطبع أن الجمجمة هي العلامة المعتادة لقراصنة البحر ، وأن علم القراصنة غالباً ما يكون عليه صورة جمجمة . قاطعته قائلاً : « ولكنك قلت إن الورقة أو قطعة الجلد لم تكن عليها أية علامة عندما رسمت عليها صورة الحشرة . كيف إذا ظهرت صورة الجمجمة ، ومتى ظهرت لأول مرة ؟ »

أجاب : « آه ، هنا يكمن السر كله على الرغم من أن غموضه لم يطل . لقد استرخت في ذهني جميع تفاصيل هذا الحادث . ففي الليلة التي رزني فيها كان الجو بارداً - وكان ذلك لحسن حظنا - وكنت أنت جالساً بجوار المدفأة . وعندما وضعت قطعة الجلد في يدك وبدأت أنت ترى الرسم فمز الكلب على كتفك ، وبدأت تداعبه بإحدى يديك ، بينما كانت اليد الأخرى التي تمسك قطعة الجلد قد اقتربت من نار المدفأة . نظرت في آخر الأمر إلى قطعة الجلد فوجدت جمجمة مرسومة عليها ، ولكن صورة الحشرة التي رسمتها كانت على الوجه الآخر الذي لم تنظر إليه . وعندما فكرت في هذا الأمر وحدث من المعقول أن أستنتج أن حرارة المدفأة هي التي أظهرت صورة الجمجمة . فمن المعروف أن هناك بعض المواد التي يمكن بواسطتها أن تكتب على الورق أو الجلد بحيث لا تظهر الكتابة إلا عند تسخين المادة المكتوب بها بحيث تختفي هذه الكتابة عند تبريدها ولكنها تعاود الظهور دائماً كلما سخناها .

« ولكني أختبر مدى صحة هذا الاستنتاج فمت على الفور بإشعال النار في المدفأة ، وسخنت قطعة الجلد تسخيناً كاملاً . وبعد بضعة دقائق ظهرت في الركن المواجه لصورة الجمجمة صورة بجدي أو ماعز صغير (ويطلق على الماعز الصغير باللغة الإنجليزية كلمة كيد Kid) ولابد أنك قد سمعت عن كاتين كيد المشهور ، فأدركت على الفور أن صورة البجدي إنما هي توقيع الكاتين كيد نفسه . ومما جعلني أقول إنها توقيع أن مكان الصورة في أسفل قطعة الجلد على اليمين يوحى بذلك بدرجة كبيرة - كما أنه من الممكن أن تعتبر الجمجمة المرسومة أعلى القطعة ختماً رسمياً .

سألته : « ولكن هل كانت هناك أي رسالة بين الختم والتوقيع ؟ »

أجاب : « لا ، لم تكن هناك أي رسالة . ولكن اعتقادي بوجود كنز مدفون في مكان قريب حفزني إلى أن أستمع في التخرية دون إبطاء . فأضفت مزيداً من الحطب لنار المدفأة ، وسخنت بعض الماء ثم غسلت قطعة الجلد بعناية . فقد كانت على قطعة الجلد طبعة من الأوساخ . وقلت في نفسي إن هذا هو سبب عدم ظهور أي كتابة . وعندما تركت القطعة لتجف أخذت أفكر في كاتين كيد والكثير الذي قيل إنه دفنه في مكان ما على هذا الساحل . لقد كان قرصاناً جسوراً وموفقاً في غاراته ، ولو لم يكن هناك بعض الصديق فيما دار من أقاصيص حول ثروته المخبأة لما استمرت تلك الأقاصيص متداولة على مر الزمن وبدون انقطاع . ومما يجدر بالملاحظة أن كل هذه القصص تدور حول البحث عن القود لا حول العثور عليها ، وقد أوحى

هذا لي بأن أدهت لا يزال مدفوناً . وقلت في نفسي إنه من المحتمل أن تكون حادثة ما قد وقعت - مثل فقدان مذكرة مكتوب فيها مكان الكثير - وأن هذه الحادثة قد حالت دون غشور كيد أو رفاقه القراصنة على الكثير مرة ثانية . بدأت في تلك اللحظة أشعر بأمل ، وإحساس أكيد بأن قطعة الجند التي وجدناها بهذه المصادفة العربية هي الوثيقة المفقودة التي تحتوي على وصيف لمكان الكثير .

سألته : « ماذا فعلت بعد ذلك ؟ »

أجاب : « وضعت قطعة الجند في إناء من الصفيح بحيث كانت صورة الجمجمة والجدي إلى أسفل ، ثم صنعت الإناء على الخشب المشتعل . وبعد دقائق قليلة رفعت الإناء من على النار ، وبدأت أفحص قطعة الجند . ولقد أخذني السرور كل ما أخذ عندما وجدت عليها الرموز التي تراها الآن . »

كان لوعران أثناء حديثه قد قام بنسخين قطعة الجند وأعطانيها ، ورأيت الرموز التالية مكتوبة بالجبر الأحمر بين صورة الجمجمة وصورة الجدي :

« 5 3 + + + 3 0 5)) 6 * ; 4 8 2 6) 4 + ; 8 0 6 * ;
4 8 + § 6 0)) 8 5 ; 1 + ; + * 8 + 8 3) 8 8) 5 * + ;
4 6) ; 8 8 * 9 6 * ? ; 8) * + ; 4 8 5) ; 5 * + 2 : * +)
; 4 9 5 6 * 2) 5 * — 4) 8 § 8 * ; 4 0 6 9 2 8 5) ; 6 + 8
) 4 + + ; 1) + 9 ; 4 8 0 8 1 ; 8 : 8 + 1 ; 4 8 + 8 5 ; 4) 4
8 5 + 5 2 8 8 0 6 * 8 1) + 9 ; 4 8 ;) 8 8 ; 4) + ? 3 4 ; 4 8
) 4 + ; 1 6 1 ; : 1 8 8 ; + ? ; »

قلت له وأنا أعيد قطعة الجند إليه : « هذا أصعب من أن أفهم له معنى . »

قال لوعران : « ومع ذلك فإن الحل ليس صعباً . ذلك أن كيد - كما نعرف - لم يكن في غاية الذكاء . إن لكل من هذه الأرقام والرموز معناه ، كنت قد تدربت من قبل على حل مثل هذه الألغاز مما جعل من السهل عليّ حل هذا اللغز . فقد سبق أن قمت بحل ألغاز أخرى أصعب من هذا اللغز بألف مرة . »

« إن أول سؤال على الشخص أن يسأله لنفسه هو : ما اللغة التي كتبت بها هذه الرسالة ؟ ولم تكن الإجابة عن هذا السؤال صعبة بالنسبة لهذه الحالة ، إذ إن رسم الجدي في مكان توقيع كيد يجعل من السهل علينا أن نقول إن اللغة المستخدمة هي اللغة الإنجليزية . »

« والخطوة الثانية هي أن يجد الرقم أو الرمز الذي يتكرر أكثر من غيره في الرسالة ، وقد وجدت على الفور أن الرقم 8 هو أكثرها تكراراً ، وإذا كنت في شك من هذا يمكنك أن تعدّها بنفسك . وإذا رجعنا إلى اللغة الإنجليزية نجد أن حرف e هو أكثر الحروف شيوعاً . فلنفترض إذاً أن الرقم 8 الذي يكرر ثلاثاً وثلاثين مرة في رسالة كيد هو الذي استخدم بدلاً من الحرف e . لنحاول بعد ذلك أن نرى هل كان الرقم 8 يظهر مزدوجاً ؟ ذلك أن حرف e نرى ما يأتي مكرراً في اللغة الإنجليزية في عدد من الكلمات مثل :

meet, speed, seen, been, agree,...

« وسأحد بفحصنا لهذه الرسالة أن رقم 8 يأتي مكرراً خمس مرات على الرقيم

مِنْ قِصَرِ الرِّسَالَةِ . وَهَكَذَا يُمَكِّنُنَا أَنْ نَقُولَ الْآنَ وَنَحْنُ عَلَى يَقِينٍ بِأَنَّ الرِّقْمَ 8
يُرْمِزُ إِلَى الْحَرْفِ e .

« وَأَكْثَرُ الْكَلِمَاتِ شِوْعًا فِي اللُّغَةِ الْإِنْجِلِيزِيَّةِ هِيَ كَلِمَةُ The . وَعَلَيْنَا الْآنَ
أَنْ نَبْحَثَ فِي الرِّسَالَةِ لِنَرَى هَلْ هُنَاكَ مَجْمُوعَاتٌ مِنَ الْكَلِمَاتِ مُكَوَّنَةٌ مِنْ ثَلَاثَةِ
رُمُوزٍ آخِرُهَا الرِّقْمُ 8 عَلَى أَنْ يَكُونَ تَرْتِيبُ هَذِهِ الرُّمُوزِ وَاحِدًا فِي الْكَلِمَاتِ
جَمِيعِهَا ؟ وَنَعُدْ شَيْءٌ مِنَ الْبَحْثِ نَجِدُ أَنَّ مَجْمُوعَةَ الرُّمُوزِ (48) تَتَكَرَّرُ
بِنَفْسِ هَذَا التَّرْتِيبِ سَبْعَ مَرَّاتٍ ، وَمِنْ ثَمَّ يُمَكِّنُنَا أَنْ نَسْتَتِيعَ أَنْ مَجْمُوعَةَ
الرُّمُوزِ (48) تُمَثِّلُ الْكَلِمَةَ The وَعَلَيْهِ فَإِنَّ الرَّمْزَ (i) يُمَثِّلُ حَرْفَ t وَالرَّمْزَ 4
يُمَثِّلُ الْحَرْفَ h .

« وَلِنَنْظُرَ الْآنَ إِلَى الْمَكَانِ الَّذِي قَبْلَ الْآخِرِ وَتُظْهَرُ فِيهِ مَجْمُوعَةُ الرُّمُوزِ
(48) قُرْبَ بَهَايَةِ الرِّسَالَةِ . بِإِمْكَانِنَا أَنْ نَحُلَّ هَذِهِ الرُّمُوزَ مُسْتَحْدِمِينَ الْأَحْرَفَ
الْثَلَاثَةَ الَّتِي عَرَفْنَاهَا حَتَّى الْآنَ عَلَى النَّحْوِ الْآتِي : -

4 ; 88 ; (48) ;

the / t. ee / th

« لَدَيْنَا هُنَا كَلِمَةُ The وَنَعْدَهَا كَلِمَتَانِ . وَأَقُولُ كَيْسَتَيْنِ لِأَنَّهُ لَا تُوجَدُ فِي
اللُّغَةِ الْإِنْجِلِيزِيَّةِ كَلِمَةٌ تَبْدَأُ بِحَرْفِ t وَتَنْتَهِي بِحَرْفِ th وَتَكُونُ مُكَوَّنَةً مِنْ سِتَّةِ
حُرُوفٍ . عِنْدَمَا تُجَرَّبُ كُلُّ حُرُوفٍ الْأَلْفَبَاءِ نَجِدُ أَنَّ الْحَرْفَ الْتَّالِيَّ هُوَ
حَرْفُ r الَّذِي يُعْطِيَا كَلِمَةَ tree بِمَعْنَى شَجَرَةٍ . وَهَكَذَا يُمَكِّنُ الْقَوْلُ أَنَّ
الرَّمْزَ () يُشِيرُ إِلَى الْحَرْفِ r . وَيُمَكِّنُنَا أَنْ نَسْتَفِيدَ كَذَلِكَ مِنْ مَجْمُوعَةِ الرُّمُوزِ

(48) : إِذَا قُمْنَا بِفَحْصِ مَجْمُوعَةِ الرُّمُوزِ الْآتِيَةِ وَاسْتَبَدَلْنَا بِغَضِّ الرُّمُوزِ
الْحُرُوفَ الَّتِي تُمَثِّلُهَا : -

48 ; 34 ; 4) 88 ; (48) ;

the/ tree/ thr...h/ the

« وَبِمَكِّنِ الْوُصُولِ بِسُهُولَةٍ إِلَى مَعْرِفَةِ أَنَّ الْأَحْرَفَ الثَّلَاثَةَ التَّالِيَةَ هِيَ oug
أَعْطِيَا كَلِمَةَ through بِمَعْنَى خِلَالٍ أَوْ وَسَطٍ ، وَهَكَذَا تَكُونُ قَدْ تَوَصَّلْنَا إِلَى
مَعْرِفَةِ ثَلَاثَةِ أَحْرَفٍ جَدِيدَةٍ هِيَ oug وَتُمَثِّلُهَا : 3) .

« وَوَاصَلْتُ بَحْثِي عَلَى هَذَا النَّحْوِ كَيْ أُصِلَ إِلَى مَعْرِفَةِ الرُّمُوزِ الْمُسْتَحْدَمَةِ
مِنَ بَاقِيِ الْحُرُوفِ مُسْتَفِيدًا كُلَّ الْإِسْتِمَادَةِ بِالْحُرُوفِ الَّتِي أُمَكِّنُنِي مَعْرِفَتَهَا .
فَكُنْتُ عَلَى سَبِيلِ الْمِثَالِ الْمَجْمُوعَةُ : -

88 (83) †

.egree

« الْمَوْحُودَةُ قُرْبَ بَدِيَةِ الرِّسَالَةِ ، وَأُمَكِّنُنِي بِسُهُولَةٍ أَنْ أُسْتَتِيعَ أَنَّهَا تُمَثِّلُ كَلِمَةَ
degree (دَرَجَةٌ) وَبِذَلِكَ عَرَفْتُ أَنَّ الرَّمْزَ † يَحُلُّ مَحَلَّ الْحَرْفِ d .

« نَحْنُ مِنَ الْضَّرُورِيِّ أَنْ أُسْتَطَرِدَّ أَكْثَرُ مِنْ هَذَا فِي إِبْصَاحِ الطَّرِيقَةِ الَّتِي
أَسْتَخْدِمُهَا فِي حَلِّ هَذِهِ الرِّسَالَةِ اسْتَشْفَرِيَّةٍ . فَقَدْ ذَكَرْتُ مَا فِيهِ الْكَلِمَةُ لِإِبْصَاحِ
الْأَسْلُوبِ الَّذِي يُمَكِّنُ اسْتِخْدَامَهُ لِخَلِّهَا وَلِأَوْصَحَ لَكَ أَنَّ هَذَا اللَّغْرُ بِالذَّاتِ لَمْ
يَكُنْ صَعْبًا . وَلَكِنْ عِنْدَمَا قُمْتُ بِتَرْجُمَةِ رِسَالَةِ كِيدِ تَرْجُمَةٍ عَمَلِيَّةٍ كَانَ عَلَيَّ أَنْ
أَوْفُقَ نَصْحِيحِ خَطِّ أَوْ خَطَّائِي مُسْتَحْدِمًا مَعْرِفَتِي بِهَذِهِ الْمِنْطَقَةِ . وَإِلَيْكَ
لِرَجَائِي لِلرِّسَالَةِ : -

« زُحَاةٌ حَيَّةٌ فِي قَلْعَةٍ يَسُوبُ بِمَقْعِدِ الشَّيْطَانِ - وَاحِدٌ وَأَرْبَعُونَ
 دَرَجَةً - الشَّمَالُ الشَّرْقِيُّ وَشَمَالًا - الْفَرْعُ الرَّئِيسِيُّ لِلشَّجَرَةِ - الطَّرْفُ
 السَّابِعُ إِلَى جِهَةِ الشَّرْقِ - اقْدِفْ مِنَ الْعَيْنِ الْيُسْرَى لِلْجُمُحَةِ - حَطٌّ مِنْ
 الشَّجَرَةِ إِلَى مَكَانِ الْقَذْفِ - خُمْسُونَ قَدَمًا إِلَى الْخَارِجِ . »

« كُنْتُ قَدْ سَمِعْتُ عَنْ عَائِلَةٍ بِاسْمِ يَسُوبَ ، وَكَانَتْ تِلْكَ الْعَائِلَةُ مِنْ أَكْثَرِ
 مُلَاكِ الْأَرَاضِي فِي تِلْكَ الْمِنْطَقَةِ فِي الْمَاضِي . فَقُمْتُ بِعَمَلِ اسْتِيفَارَاتٍ دَقِيقَةٍ
 بَيْنَ كِبَارِ السَّنِّ بِتِلْكَ النَّاحِيَةِ ، وَأَخِيرًا قَابِلْتُ أَمْرَأَةً طَائِعَةً فِي السَّرِّ كَانَتْ تَقُومُ
 بِخِدْمَةِ تِلْكَ الْعَائِلَةِ مُنْذُ عِدَّةٍ سِنِينَ . وَعَرَفْتُ مِنْهَا أَنَّهَا كَانَتْ تَسْمَعُ بِالْمَكَانِ
 الَّذِي يُطْلَقُ عَلَيْهِ اسْمُ الْقَلْعَةِ ، وَقَالَتْ إِنَّ فِي وَسْعِهَا أَنْ تَقُودَنِي إِلَيْهِ ، وَأَضَافَتْ
 إِنَّ الْمَكَانَ لَمْ يَكُنْ قَلْعَةً عَلَى الْإِطْلَاقِ نَلَّ صَخْرَةً عَالِيَةً . »

« وَخَدْنَا الْمَكَانَ بِذَوْبِ صُعُوبَةٍ ، وَهُوَ مَخْمُوعَةٌ غَيْرُ مُنْتَظِمَةٍ مِنْ
 الْمُنْحَدِرَاتِ الْجَبَلِيَّةِ وَالصُّخُورِ ، وَكَانَتْ إِحْدَى تِلْكَ الصُّخُورِ أَعْلَى بِكَثِيرٍ
 مِنَ الصُّخُورِ الْأُخْرَى مِمَّا جَعَلَ شَكْلَهَا الْعَامَّ يُشَبِّهُ بُرْجَ الْقَلْعَةِ . فَتَسَلَّقْتُ تِلْكَ
 الصُّخْرَةَ حَتَّى قَمَيْتُهَا وَجَلَسْتُ هُنَاكَ أَفَكِّرُ فِيمَا يُمَكِّنُ عَمَلَهُ بَعْدَ ذَلِكَ . »

« وَسَرَّعَانِ مَا وَقَعَتْ عَيْنَايَ عَلَى بُرُوزِ صَخْرَةٍ يَقَعُ عَلَى تَعْدٍ مِثْرٍ تَحْتَ
 الْمَكَانِ الَّذِي أُجْلِسُ عَلَيْهِ . وَكَانَ شَكْلُهُ يُشَبِّهُ الْكُرْسِيَّ شَتَاهَا كَامِلًا بِظَهْرِهِ
 وَمَقْعِدِهِ . وَلَمْ يَتَقَ عِنْدِي أَيُّ شَكٍّ أَنَّ هَذَا هُوَ « مَقْعِدُ الشَّيْطَانِ » الَّذِي جَاءَ
 ذِكْرُهُ فِي الرِّسَالَةِ ، فَتَرَلْتُ إِلَيْهِ وَوَجَدْتُ أَنَّهُ مِنَ الْمُسْتَحِيلِ الْجُلُوسُ عَلَيْهِ إِلَّا فِي
 وَضْعٍ وَاحِدٍ مُخَدَّدٍ . وَأَذْرَكْتُ فَجَاءَهُ السَّرُّ الْكَامِلُ الَّذِي تُشِيرُ إِلَيْهِ الرِّسَالَةُ . »

« إِنَّ عِبَارَةَ (زُحَاةٌ حَيَّةٌ) الَّتِي بِالرِّسَالَةِ لَا تُعْنِي زُحَاةٌ شَرَابٌ أَبَدًا ،
 إِنَّمَا تُعْنِي زُحَاةٌ الْبَحَارِ أَوْ التَّلْسُكُوبُ . وَأَنَّ مِنَ الْوَاجِبِ اسْتِخْدَامِ
 « تِلْسُكُوبٍ وَأَنْتَ جَالِسٌ عَلَى مَقْعِدِ الشَّيْطَانِ فِي ذَلِكَ الْوَضْعِ الْوَحِيدِ الَّذِي
 يُنْمَحُ بِهِ الْمَقْعِدُ . وَاتَّصَحَّ لِي أَيْضًا أَنَّ عِبَارَةَ (وَاحِدٌ وَأَرْبَعُونَ دَرَجَةً -
 الشَّمَالُ الشَّرْقِيُّ وَشَمَالًا) إِنَّمَا تُذَلُّ عَلَى تَوَجِّهَاتٍ خَاصَّةٍ بِالْمَكَانِ الَّذِي حُتِّي
 « التَّلْسُكُوبُ . وَرَأَيْتُ هَذِهِ الْأَسْتِيفَارَاتِ مِنْ تَوَثُّرِ أَغْصَانِي ، فَاسْرَعْتُ إِلَى
 النَّتِّ وَأَخْضَرْتُ تِلْسُكُوبِي ثُمَّ رَجَعْتُ ثَابِتَةً إِلَى الصُّخْرَةِ . »

« حَدَّدْتُ زَاوِيَةَ الرُّؤْيَا بِأَقْصَى دَقَّةٍ مُمَكِّنَةٍ مُسْتَعْدِمًا اتِّجَاهَ الشَّمْسِ فِي تِلْكَ
 السَّاعَةِ مِنَ النَّهَارِ ، وَبَدَأْتُ أَحْرَكَ التَّلْسُكُوبِ بِبُطْءٍ إِلَى أَعْلَى وَإِلَى أَسْفَلِ .
 وَأَخِيرًا جَذَبْتُ اتِّبَاهِي فَتَحَةً دَائِرِيَّةً فِي أَعْلَى شَجَرَةٍ كَبِيرَةٍ بَعِيدَةٍ ، وَفِي وَسْطِ
 تِلْكَ الْفَتْحَةِ رَأَيْتُ شَيْئًا يَمِيلُ إِلَى الْبَيَاضِ ، وَعِنْدَ مَا دَفَقْتُ الطَّرَافُ أَذْرَكْتُ أَنَّ
 هَذَا الشَّيْءَ مَا هُوَ إِلَّا جُمُجُمَةٌ آدَمِيَّةٌ . »

« لَقَدْ اتَّصَحَّ لِي كُلُّ شَيْءٍ . وَكَانَ عَلَيَّ آنَئِكَ أَنْ أُصِلَ إِلَى هَذِهِ الْجُمُجُمَةِ
 الَّتِي تُوَحَّدُ فِي الْفَرْعِ الرَّئِيسِيِّ لِلشَّجَرَةِ بِالطَّرْفِ السَّابِعِ إِلَى جِهَةِ الشَّرْقِ .
 وَعَلَيَّ أَنْ اقْدِفَ أَوْ أُسْقِطَ شَيْئًا مِنَ الْعَيْنِ الْيُسْرَى لِلْجُمُجُمَةِ إِلَى الْأَرْضِ ، ثُمَّ
 أَرْسَمَ خَطًّا مِنَ الشَّجَرَةِ إِلَى الْمَكَانِ الَّذِي وَقَعَ فِيهِ الشَّيْءُ الَّذِي أُسْقِطْتُهُ ، ثُمَّ
 أُنْجِهَ بِهَذَا الْخَطِّ إِلَى الْخَارِجِ لِمَسَافَةِ خَمْسِينَ قَدَمًا أَوْ سِتَّةَ عَشَرَ مِثْرًا وَنِصْفَ
 الْمِثْرِ تَقْرِيبًا . وَقُلْتُ فِي نَفْسِي إِنَّهُ مِنَ الْمُحْتَمَلِ أَنْ يَكُونَ الْكَثْرُ مَذْفُوعًا تَحْتَ
 هَذِهِ النُّقْطَةِ . »

« في اليوم التالي وجدت الشجرة يشيء من الصعوبة ، ثم أرسلت إليك وأنت تعرف باقي المغامرة كما أعرفها أنا . »

فنت : « اعتقد أن سبب الخطأ في محاولتنا الأولى راجع إلى عباء حوبيتر ، لما جعل الحشرة تسقط من العين اليمنى ندلاً من العين اليسرى . »

قال : « بالضبط ! إن هذا الخطأ جعلنا نحمر على بُعد مترين تقريباً من
١٨ . وجود الكثر . »

فنت : « نعم ، أنا أدرك ذلك ، وآلآن هناك شيء واحد ما زال يُحيرني .
١٩ . هو في رأيك ست وجود العظام في الحفرة ؟ »

أجاب : « إنني لا أجد إلا سبباً واحداً لذلك . ومع ذلك فمن العسير أن
نصدق الشخص بوحود مثل تلك القسوة . لا بد أن كيد استعان بآخرين
من إحمائه الكثر . وعندما فرغوا من العمية لا بد أنه رأى من الأفضل ألا
يتركه في هذا السر أخذ ، ويكفي لحفظ السر أن يطلق طلفتين على الرجلين
، مما متهمكأن في عملهما بالحفرة . ربما كان الأمر يحتاج إلى اثنتي عشرة
طفلة - من يذري ؟ »



الموت الأحمر

قَتَلَ « الموت الأحمر » آلاف الأشخاص ، وَلَمْ يَحْدُثْ قَطُّ أَنْ كَانَ لِمَرَضٍ مِثْلَ شَرَّاسِيهِ .

كَانَ الدَّمُ سِمَتَهُ الْمُمَيِّزَةَ . فَقَدْ كَانَ الْمُصَابُ يَشْعُرُ بِالْأَمِّ حَادَّةٍ ثُمَّ يُعَالِي مِنْ إِعْمَاعٍ مُفَاجِئَةٍ ، وَتُزْفُ الدَّمَاءُ مِنْ جِلْدِهِ ، وَتَسْرَعَانِ مَا يَلْفِظُ أَنْفَاسَهُ فِي أَقَلِّ مِنْ بَصِيفِ السَّاعَةِ . وَكَانَتْ الْبُقْعُ الْحُمْرَاءُ الَّتِي تَنْتَشِرُ فِي جِسْمِ الْمَرِيضِ وَبِخَاصَّةٍ عَلَى وَجْهِهِ تَحْوِلُ دُونَ قِيَامِ الْآخَرِينَ بِتَجَدُّدِهِ . وَعِنْدَمَا تَظْهَرُ تِلْكَ الْبُقْعُ عَلَى الْمَرِيضِ فَإِنَّ ذَلِكَ يَعْنِي ضِيَاعَ أَيِّ أَمَلٍ فِي شِعَائِهِ .

لَكِنَّ الْأَمِيرَ تَرُوسِيرُو كَانَ سَعِيدًا وَشَحَاعًا وَحَكِيمًا . فَبَعْدَ أَنْ مَاتَ نِصْفُ شَعْبِهِ ، دَعَا أَلَمًا مِنَ اللَّوَرْدَاتِ وَكَرَائِمِ السَّيِّدَاتِ الَّذِينَ يَتِمَتُّعُونَ بِصِحَّةٍ خَيْرَةٍ ، وَذَهَبَ مَعَهُمْ لِيَعِيشُوا خَمِيصًا فِي قَلْعَةٍ قَاصِيَةٍ . كَانَتْ مَبَانِي الْقَلْعَةِ الضَّخْمَةِ وَالْأَرْضِي الْفَسِيحَةُ الْمُحِيطَةُ بِهَا تَقَعُ وَرَاءَ جُذْرَانِ صَخْمَةٍ عَالِيَةٍ ، وَكَانَتْ لِيَتَنَكَّ الْحُذْرَانِ أَبْوَابَ حَدِيدِيَّةٍ . وَبَعْدَ أَنْ دَخَلُوا مِنْ تِلْكَ الْأَبْوَابِ قَامُوا بِصَهْرِ أَقْقَالِهَا حَتَّى يَتَأَكَّدُوا مِنْ أَنَّهَا لَنْ تُفْتَحَ ثَابِتَةً مَعَهُمَا كَانَ نَوْعُ الْمِفَاتِيحِ الَّتِي تُسْتَخْدَمُ فِي فَتْحِهَا .

وَهَكَذَا لَمْ يَكُنْ فِي وَسْجٍ أَحَدٌ أَنْ يَدْخُلَ إِلَى الْقَلْعَةِ أَوْ يَخْرُجَ مِنْهَا . وَكَانَ الْأَمِيرُ قَدْ أَمَدَّهَا بِالطَّعَامِ الْكَافِي حَتَّى يَظَلَّ هُوَ وَرِجَالُهُ اللَّوَرْدَاتُ هُنَاكَ بِمَأْمَنِ مِنَ الْمَرَضِ الْخَطِيرِ . وَلِيَهْنَمَ كُلُّ مَنْ هُوَ خَارِجُ أَسْوَارِ الْقَلْعَةِ بِنَفْسِهِ ، أَمَّا

بالتسببة له فقد كان من الحمافة أن يفلق أو تساوره الأفكار والهجوم . وكان الأمير قد أعد عُدته ليحيا حياة ملوها اللذة والتهجة . فقد جاء إلى القلعة بالممثلين وعازفي الموسيقى ، أما خارجها فقد كان هناك الموت الأحمر .

بعد أن قضى رجال البلاط خمسة أشهر أو ستة بالقلعة ، وكان المرص خارجها قد بلغ ذروته ، دعا الأمير بروسيرو أصدقاءه الألف إلى حفل راقص كبير ، وأعدت الترتيبات لكي يكون هذا الحفل أزوع احتفالات العام ، وأن يقوم المشتركون في الرقص بارتداء الأقنعة . وقد أعدت سبع غرف من أجمل غرف القلعة إعدادا خاصا لهذه المناسبة . وكانت تلك الغرف ذات شكل غير منتظم عند أحد أركان المبنى ، بحيث تكون هناك راوية حادة بين كل غرفة والغرفة المجاورة لها ، مما يجعل من غير الممكن أن يرى الشخص أكثر من غرفة في وقت واحد . وكان طلاء كل غرفة وأثاثها وزخارفها تختلف عن الغرف الأخرى ، وكانت التوافد من الزجاج الملون الذي يوافق لون الغرفة . وهكذا كانت الغرفة الشرقية ذات لون أزرق ، وكان لون نوافذها أزرق لامعا . أما الغرفة الثانية فكان لونها أرجوانيا ، وكذا كان لون زجاج نوافذها . وكانت الغرفة الثالثة خضراء اللون ، والرابعة صفراء ، والخامسة برتقالية اللون ، والسادسة بيضاء . أما الغرفة السابعة فكانت سوداء اللون . ولكن نوافذها كانت من لون مختلف . لقد كانت التوافد الوحيدة التي لا يوافق لونها لون الغرفة ، فقد كان لون الزجاج هناك أحمر ... كان من ذلك اللون الأحمر القاني الذي هو في حمرة الدم .

لم تكن نمة أضواء أو مصابيح بأي من هذه الغرف ، لكن أوقدت النيران خارج التوافد الزجاجية ، مما جعل أشعتها تخترق الزجاج الملون إلى داخل الغرفة محدثة أشكالا وحيالات غريبة . أما في الغرفة السوداء فإن تأثير الأضواء المنبعثة من النيران الخارجة والتي تلمع على الزجاج الأحمر كان مرعبا للغاية . ولهذا فإن القليلين من المخطفين هم الذين كان لهم من الجراءة ما يجعلهم قادرين على دخول تلك الغرفة .

كان يتلك الغرفة السوداء إلى جوار الحائط الغربي ، ساعة ضخمة من الخشب الأسود . وكلما حان الوقت الذي تدق فيه تلك الساعة كانت تصدر صوتا موسيقيا واضحا عاليا وعميقا ، ولكنه كان من العراية بدرجة تجعل الموسيقيين يتوقفون عن العزف كي ينصتوا إليه . وهكذا كان الرقص يتوقف ويحدث شيء من الهرج والأرباك في صفوف تلك الجماعة المرحية . ثم إذا ما دقت الساعة دقتها الأخيرة سرت ضخمة خفيفة بين المخطفين ، ونظر الموسيقيون بعضهم إلى البعض وتبسموا وكأنما يستخرون من حماقتهم ، ويقولون إنهم لن يسمحوا بعد ذلك لدقات الساعة أن تتدخل وتوقف عزفهم في الساعة التالية . ولكن يحدث بعد ساعة أن يتوقفوا مرة أخرى ، وأن يكون ذلك الهرج والأرباك الذي حدث من قبل .

على الرغم من هذا كان حقا مرحا . وكانت ملابس السيدات تتسم بالجمال والابتكار ، وملابس الرجال بالألوان الزاهية والخيال الجامح . فقد

كَانَ مَطْهَرُ بَعْضِ الرُّحَالِ يَتَدَوُّ مَرَّعِيًّا ، وَمَطْهَرُ غَدَدٍ قَبِيلٍ مِنْهُمْ مُثِيرًا لِلْإِشْمِزَارِ .
وَهَكَذَا كَانَ الرَّاغِصُونَ وَالرَّاغِصَاتُ يَحُولُونَ هُنَا وَهُنَاكَ فِي الْغُرُفِ السَّبْعِ وَكَأَنَّهُمْ
أَشْيَاحٌ فِي حُلْمٍ . وَكَانَتْ حَرَكَاتُهُمْ مُتَاعِمَةً مَعَ الْمَوْسِيقَى كَمَا كَانَتْ أَلْوَانُهُمْ
تَتَغَيَّرُ مِنْ غُرْفَةٍ إِلَى غُرْفَةٍ . وَكَانَ مِنَ الْمَلَاخِظِ أَنَّهُ لَمْ يَقْتَرِحْ مِنَ الْغُرْفَةِ السَّابِعَةِ
— فِي الْجُزْءِ الْآخِرِ مِنَ اللَّيْلِ — إِلَّا غَدَدٌ قَلِيلٌ مِنَ الْمُخْتَلِئِينَ . وَأَخَذَ هَذَا الْعَدَدُ
يَتَأَقَّصُ تَذْرِيجِيًّا خَوْفًا مِنْ ذَلِكَ أَلْوَنِ الْأَسْوَدِ الَّذِي كَانَتْ تُصَيِّفُهُ أَشْيَعَةُ خُمَرَاءَ
فِي نَوْدِ اللَّدْمِ الْفَاقِي .

أَحِيرًا بَدَأَتِ السَّاعَةُ الصَّحْمَةُ الْمَوْجُودَةُ فِي تِلْكَ الْغُرْفَةِ تَذُقُ مُعْلِنَةً مُتَّصِفَةً
الَّلَّيْلِ ، فَتَوَقَّفَ آرْقِصُ كَمَا سَقَى أَنْ ذَكَرْتُ وَوَقَفَ الرَّاغِصُونَ فِي أَمَاكِيهِمْ مِنْ
دُوبِ خَرَائِكِ ، وَسَادَ الْحَمِيمُ شَعُورٌ بَعْدَ الْإِزْتِيَاكِ . وَقَبْلَ الدَّقَّةِ الثَّانِيَةِ عَشْرَةَ
كَانَ غَدَدٌ مِنَ الرَّاغِصِينَ الْيَقِظِينَ قَدْ لَاحَظُوا وَجُودَ شَخْصٍ مِنْهُمْ لَمْ يَكُنْ أَحَدٌ
قَدْ رَأَاهُ مِنْ قَبْلُ . وَأُحْدِثَ ظُهُورُهُ هَمْسَاتٍ ثُمَّ عَنِ الدُّعْشَةِ وَالْكَرَاهِيَةِ فِي أَوَّلِ
الْأَمْرِ ، ثُمَّ مَا لَيْثَتْ هَذِهِ الْهَمْسَاتُ أَنْ تَحُولَتْ إِلَى صَيِّحَاتٍ مِنَ الْخَوْفِ
وَالْإِشْمِزَارِ .

كَانَ ذَلِكَ الْمُسْتَمُّ طَوِيلًا نَحِيفًا يَرْتَدِي كَفًّا يُعْصِيهِ مِنْ قِمَّةِ رَأْسِهِ إِلَى أَوْخَصِ
قَدَمَيْهِ ، أَمَّا الْقِنَاعُ الَّذِي كَانَ يُعْطِي وَجْهَهُ فَقَدْ صُبِعَ بِحَيْثُ يَتَدَوُّ وَكَأَنَّهُ وَجْهٌ
مَيِّتٌ .. وَكَانَ الْقِنَاعُ مِنْ دِقَّةِ الصَّعْبِ بِحَيْثُ لَا يُمْكِنُ التَّفَرُّقَةُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْوَجْهِ
الْحَقِيقِيِّ لِشَخْصٍ مُتَوَفَّى . وَمَعَ ذَلِكَ فَإِنَّ هَذَا لَمْ يَكُنِ السَّبَبُ الْحَقِيقِيُّ
لَاغْتِرَاصِ الْمُخْتَلِئِينَ . إِنَّ سَبَبَ كَرَاهِيَّتِهِمْ وَإِشْمِزَارِهِمْ هُوَ أَنَّ هَذَا الشَّخْصَ
الْعَرِيبَ قَدْ قُلِدَ الْمَوْتُ الْأَحْمَرُ تَقْلِيدًا كَامِلًا — فَقَدْ كَانَ رِدَاؤُهُ مُلَطَّخًا

بِالدَّمَاءِ ، وَكَانَ عَلَى وَجْهِهِ كُلِّهِ نِقَاطُ الْمَوْتِ الْحُمْرَاءِ .

عِنْدَمَا وَقَعَتْ عَيْنَا الْأَمِيرِ بَرُوسِيَرُو عَلَى ذَلِكَ الشَّخْصِ الْمُخْفِيفِ الَّذِي كَانَ
يَسِيرُ بِخُطَوَاتٍ بَطِينَةٍ مَهِيبةٍ هُنَا وَهُنَاكَ بَيْنَ الرَّاغِصِينَ أَسْتَشَاطَ غَضَبًا ، وَصَاحَ
فِي التَّبَلَّاءِ الْوَاقِعِينَ بِالْقُرْبِ مِنْهُ قَائِلًا : « مَنْ هُوَ ذَلِكَ الَّذِي يَجْرُؤُ عَلَى إِهَانَتِنَا
عَلَى هَذَا النَّحْوِ ؟ أَمْسِكُوا بِهِ وَمَزَقُوا الْقِنَاعَ لِتَرَى ذَلِكَ الشَّخْصَ الَّذِي سَوَّفَ
تُعِدُّهُ شَتَقًا عِنْدَ طُلُوعِ الشَّمْسِ . »

كَانَ الْأَمِيرُ وَاقِفًا فِي الْغُرْفَةِ الشَّرْقِيَّةِ الْزُرْقَاءِ ، وَكَانَ حَوْلَهُ جَمَاعَةٌ مِنْ
أَصْدِقَائِهِ . وَبَدَأَتْ تِلْكَ الْجَمَاعَةُ تَتَجَهُّ فِي أَوَّلِ الْأَمْرِ نَحْوَ ذَلِكَ الشَّخْصِ
الْعَرِيبِ الَّذِي كَانَ عَلَى مَقَرَّةٍ مِنْهُمْ فِي تِلْكَ الْأَثَاءِ . وَلَكِنْ لَمْ يَرِغْتَ أَحَدٌ مِنْهُمْ

فِي أَنْ يَمُدَّ يَدَهُ لِيُمْسِكَ بِهِ . وَهَكَذَا سَارَ أَمَامَ الْأَمِيرِ مِنْ دُونِ أَنْ يَغْتَرِضَهُ
أَحَدٌ ، وَاتَّجَهَ مِنَ الْعُرْفَةِ الزَّرْقَاءِ إِلَى الْأَرْجَوَانِيَّةِ ، وَمِنْهَا إِلَى الْحَصْرَاءِ ثُمَّ الْعُرْفَةِ
الْصَفْرَاءِ فَالْبُرْتُقَالِيَّةِ فَالْبَيْضَاءِ مِنْ دُونِ أَنْ يَتَحَرَّكَ أَحَدٌ لِإِقْبَاقِهِ . جُنَّ خُوفُ
الْأَمِيرِ تَرَوْسِيَرُو وشعر بالحلل لإخساسة بأنه قد جس عن مواهبته ، فاندفع
مُسْرِعًا عَثَرَ الْعُرْفَ الْأَسَدِيَّ وَامْتَشَقَّ سَيْفَهُ أَثَاءَ أَنْدِفَاعِهِ ، وَكَانَ الشَّخْصُ قَدْ
وَصَلَ آنَذَاكَ إِلَى الْحَائِطِ الْعَرَبِيِّ لِعُرْفَةِ السَّاعَةِ - الْعُرْفَةِ السَّوْدَاءِ - عِنْدَمَا
اسْتَدَارَ فَجَاءَهُ لِمُوَاجَهَةِ الْأَمِيرِ . انْعَقَتْ ذَلِكَ صَيْحَةً عَالِيَةً وَسَقَطَ سَيْفُ الْأَمِيرِ
عَلَى الْأَرْضِ . وَنَعَدَ لِحَطَّابٍ سَقَطَ الْأَمِيرُ بَرُوسِيَرُو مِتْنَا بِحَوَارِ سَيْفِهِ .

وَعِنْدَئِذٍ أَنْدَفَعَ نَفْضُ التَّلَاءِ - وَقَدْ أَذْكَتْ حَيَاتُهُمْ شَجَاعَةٌ يَائِسَةٌ -
وَالْقَوَا بِأَنْفُسِهِمْ عَلَى الشَّخْصِ الْعَرَبِيِّ الَّذِي وَقَفَ سَاكِئًا صَامِتًا فِي ظِلِّ السَّاعَةِ
الضَّخْمَةِ السَّوْدَاءِ ، وَأَحْدُوا يُمَرَّقُونَ قِنَاعَ الْمَوْتِ وَالرَّدَاءَ الْمُلَطَّحَ بِالدَّمَاءِ ،
وَلَكِنَّهُمْ تَرَاهُمَا وَهُمْ يَرْتَعِدُونَ مِنَ الْخَوْفِ . إِنَّهُمْ لَمْ يَرَوْا حَسَدًا أَدْمِيًّا
دَاخِلَ الرَّدَاءِ وَالْقِنَاعِ - بَلْ كَانَ الْقِنَاعُ وَالرَّدَاءُ فَارِغَيْنِ .

وَقَدْ عَرَفُوا الْآنَ أَنَّ الرَّاثِرَ هُوَ الْمَوْتُ الْأَحْمَرُ . لَقَدْ حَاءَ كَالنَّصْرِ فِي ظُلْمَةِ
الْمَسَاءِ . وَبَدَأَ الرَّاغِصُونَ بِتَسَاقُطٍ كَوَاحِدٍ تَلَوُ الْآخِرَ وَمَاتُوا جَمِيعًا فِي عُرْفَةِ
اللدَّةِ تِلْكَ . وَذَقَّتِ السَّاعَةُ السَّوْدَاءُ دَقَّةً وَاجِدَةً ثُمَّ تَوَقَّفَتْ ، وَخَسَتْ السَّيَّةُ
الْهَبَ فِي الْخَارِجِ ، وَسَادَ الظُّلَامُ وَالتَّعَفُّسُ وَالْمَوْتُ الْأَحْمَرُ كُلُّ شَيْءٍ .

الدَّوَامَةُ

وَصَنَّا إِلَى قِمَّةِ أَغْنَى صَخْرَةٍ ، وَوَقَفْنَا نَنْتَظِرُ إِلَى الْأَمْوَاجِ الصَّاحِبَةِ
الْمُتَلَاطِمَةِ نَحْنًا ، وَكُنَّا عَلَى ارْتِفَاعٍ مَا يَقْرُبُ مِنْ مِائَةِ مِثْرٍ ، فَوْقَ صُحُورِ
جُزْرِ لُوفُوتِ بِالْكُرُوجِ . وَكَانَ الرَّجُلُ الْعَحُورُ يَلْهَثُ لِمَا بَدَلَ مِنْ حَفِيدٍ ، وَصَلَ
صَامِتًا عِدَّةَ دَقَائِقٍ .

وَأَخِيرًا قَالَ : « مُنْذُ زَمَنٍ لَيْسَ بِالْبَعِيدِ ، كَانَ فِي وَسْعِي أَنْ أَقُودَكَ إِلَى هَذَا
الْمَكَانِ ، مِنْ دُونِ أَنْ أَشْعُرَ بِتَعَبٍ ، وَكَأَنِّي فِي جَمْعَةِ أَصْغَرِ أَيْتَانِي . وَلَكِنْ لَيْسَ
ذَلِكَ هُوَ حَالِي الْآنَ . إِنِّي أَشْعُرُ بِأَنِّي مُحْطَمٌ حَسْدِيٍّ وَمَغْوِيٍّ ، فَقَدْ مَرَرْتُ
مُنْذُ ثَلَاثِ سَوَابِتِ بِتَحْرِيَةٍ مُفْرَعَةٍ نَمَّ يَمُرُّ بِهَا أَحَدٌ غَيْرِي ، وَكُنَيْتُ لِي الْحَيَاةُ
كَيْ تُرَوِّبَهَا لِنَاسٍ . لَقَدْ عَانَيْتُ - لِمُدَّةِ سِتِّ سَاعَاتٍ طَوِيلٍ - مِنْ أَسْوَأِ أَنْوَاعِ
الْخَوْفِ الَّذِي يُفَكِّرُ تَحْيِيئَهُ . وَجَلَالَ بَدَلُكَ السَّاعَاتِ الَّتِي تَصَحَّحْتُ رَحْلًا
عَحُورًا ، وَابْيَضَّ شَعْرُ رَأْسِي ، وَوَهَنْتُ أَوْصَالِي ، وَفَارَقْتَنِي شِعَاعَتِي . وَقَدْ
حُثْتُ بِكَ إِلَى هَذَا كَيْ تُشَاهِدَ نَعْيِيكَ مَسْرَحَ الْآمِي ، وَتَسْمَعَ الْقِصَّةَ كَامِلَةً :
« بَخْرُ الْآنَ قَرِيبُونَ كُلُّ الْقُرْبِ مِنْ سَاحِلِ الْكُرُوجِ ، وَيُطْلِقُ عَلَى هَذِهِ
الصَّخْرَةِ الَّتِي يَقِفُ عَلَيْهَا اسْمُهُ هَلَسَعَسَ ، أَيِ الْعَائِمَةِ . اجْلِسْ الْآنَ وَانْظُرْ إِلَى
السَّحْرِ . »

كَانَ نَحْنُ امْتِدَادًا وَاسِعًا دَاكِرًا لِلْمُحِيطِ ، وَيَكَادُ أَنْ يَكُونَ سُودَ الْكُلُوبِ
. عَلَى مَرْمَى اسْطَرٍ إِلَى آسَارِ وَالْيَمِينِ عِنْدَ انْتِفَاءِ بَلَدِ الصُّحُورِ بِالسَّحْرِ . وَفِي

غرض البحر كُنْتُ أرى جزيرتين ، إحداهما صغيرة فاجلة على بُعد تسعة كيلو مترات ؛ والأخرى أصغر منها تُحيطُ بها صخور دابكة اللون على بُعد ما يُقرب من خمسة كيلو مترات من الشاطئ . وكان هناك شيءٌ غير عادي في صفحة الماء الواقع بين الجزيرة البعيدة والشاطئ ، فقد كانت المياه السريعة الصاخبة تتقاطع في اتجاهات متعددة مع اتجاه الريح وضدها .

قال الرجل العجوز : « إن الجزيرة البعيدة هي جزيرة فورغ ، أما هذه القريبة فهي جزيرة موسكو . هل تسمع شيئاً ؟ هل ترى أيَّ تغيير في الماء ؟ »

لاحظت أثناء كلام الرجل العجوز صوتاً مرتفعاً يزداد ارتفاعه تدريجياً وكأنه صوتٌ مئة من طواحين الهواء ، وفي نفس الوقت رأيتُ أن تحركات البحر تحتنا قد بدأت تتغير لتتخذ شكل تيار يتجه ناحية الشرق . ولاحظتُ وأنا أنظر إلى هذا التيار أن سرعته تزداد بصورة لا تُصدق . وفي مدى خمس دقائق أصبح البحر كله حتى جزيرة فورغ في حالة غليانٍ صاحب عصف ، ولكن أغنف جزء في هذا الصخب كان في المنطقة الواقعة بين جزيرة موسكو والشاطئ . هي هذه المنطقة كانت الأمواج الثائرة ترتفع وتسابق وتزأ وتندور في آلاف من الدوائر ، وكانت كل تلك الدوائر أو الدوامات تندفع بسرعةٍ مهيبة نحو الشرق .

لكن المظهر تغير مرة أخرى بعد بضعة دقائق . فقد بدأ سطح الماء يهدأ ، واندمجت الدوامات الصغيرة التي كانت منتشرة إلى مسافة بعيدة ، وتفتح عن اندماجها ظهور دوامة واحدة - وفجأة رأيتُ هذه الدوامة الصخمة وقد

اصحبت دائرة كبيرة يريدها قطرها على كيلو متر . وكان يمثل حافة هذه الدوامة إطار عريض من المياه البيضاء . أما الدوامة نفسها فكانت ، إلى أقصى مرمى النظر ، عبارة عن حائط من الماء الأملس اللامع ، الأسود كالحرير ؛ وكان انحدار ذلك الحائط المائي براوية قدرها خمس وأربعون درجة . وكان يدور ويدور مرسلاً صوتاً مخيفاً تنشره الريح فتحسسه بين الصياح والرئير لا مثيل له على ظهر الأرض .

رُكِلت الصخرة التي كنا جالسين عليها رزلاً عيماً ، فانتطخت على الأرض وأمسكت الصخرة بكل قواي .

قلت للرجل العجوز : « هذه لا يمكن أن تكون إلا دوامة أمانستروم الهائلة . »

قال : « هكذا تُسمى في بعض الأوقات ، ولكننا نسميها الموسكوستروم نسبة إلى جزيرة موسكو . »

إن ما قرأته من وصف عادي لهذه الدوامة لم يهمني لما رأيت ذلك أن الوصف الذي قدمه خوئاس راموس - وقد يكون أحسن وصف طهر لهذه الدوامه - هو في الواقع أضعف ما يكون عن الحقيقة . ربما يرجع ذلك إلى أنه لم يراها من قمة هينس . ومع ذلك فإن بعض التفاصيل التي قدمها راموس لها أهميتها ، إلا أنها لا تُعطي فكرة حقيقية عن هذه الأعجوبة .

في وصفه : « عندما يأتي المد يسرع التيار على طول الشاطئ من حزر

لَوْ فَوْتِنَ إِلَى جَزِيرَةِ مُوسْكُو . وَعِنْدَمَا يَنْحَسِرُ يُخْدِتُ رَقِيزًا لَا يُدَاهِيهِ الصَّجِيجُ
الَّذِي يُخْدِتُهُ أَغْتَفَ شَلَالٍ هَادِرٍ ، إِذْ يُسْمَعُ هَذَا الصَّوْتُ عَلَى تَعْدِ عِدَّةٍ كَبَلُو
مِثْرَابٍ . وَتُخْدِتُ دَوَامَةً ذَاتُ اتِّسَاعٍ وَغُمُقٍ كَبِيرَيْنِ ، حَتَّى إِنَّهُ إِذَا اقْتَرَسَتْ
مِنْهَا سَمِيَةٌ كَبِيرَةٌ فَإِنَّهَا تَجِدُهَا إِلَى مُحِيطِهَا الدُّوَارِ ثُمَّ تُرْلُهَا إِلَى قَاعِ الْبَحْرِ ،
وَهُنَاكَ تَرْتَبِطُ بِالصَّخُورِ فَتَتَحَطَّمُ . وَعِنْدَمَا يَعُودُ الْمَدُّ يَنْطَفُو حُطَامُ السَّفِينَةِ
عَلَى سَطْحِ الْمَاءِ . وَالْفَتْرَةُ الَّتِي يُصْبِحُ فِيهَا الْبَحْرُ هَادِئًا بَيْنَ الْمَدِّ وَالْجُرْرِ لَا تُرِيدُ
عَنْ رُبْعِ سَاعَةٍ يَبْدَأُ بَعْدَهَا الْهَيَّجَانُ مِنْ جَدِيدٍ بِالتَّدرِجِ .

إِنَّ هَذِهِ الْمُحَاوَلَةَ الَّتِي قَامَ بِهَا جُوناس رَامُوسُ لَوْصِفِ الدَّوَامَةَ عَلَى أَنَّهَا
نَتِيجَةُ لِلْمَدِّ وَالْجُرْرِ مُحَاوَلَةٌ كَانَتْ تُبْدُو مَقْبُولَةً لِي عِنْدَمَا قَرَأْتُهَا مِنْذُ عِدَّةٍ
سِنِينَ . وَلَكِنَّهَا تُبْدُو لِي الْآنَ - وَرَقِيزُ الدَّوَامَةِ يُصَيِّمُ أُذُنِي - مُحَاوَلَةً غَيْرَ
مُقْنِعَةٍ عَلَى الْإِطْلَاقِ . وَعِنْدَمَا نَظَرْتُ إِلَى الْبَحْرِ بَدَأَ ذَهْنِي يَقْبَلُ ذَلِكَ التَّفْسِيرَ
الَّذِي قَالَ بِهِ كِيرْتِشِرَ وَآخَرُونَ وَالَّذِي يَدْعُونَ فِيهِ بِوُجُودِ ثَقْبٍ أَوْ شَرِّحٍ فِي
قَاعِ الْبَحْرِ ، وَأَنَّ هَذَا الثَّقْبَ أَوْ الشَّرِّحَ يَمْتَدُّ دَاخِلَ الْكَرَةِ الْأَرْضِيَّةِ كُلِّهَا
لِيَخْرُجَ مِنَ الطَّرَفِ الْأَخْرَ فِي أَحَدِ الْمُحِيطَاتِ الْبَعِيدَةِ . لَقَدْ ذَكَرْتُ هَذِهِ
الْفِكْرَةَ لِذَلِيلِي الْعُحُورِ وَاعْتَرَّتْهَا نَوْعًا مِنَ الْمَزَاجِ ، وَلَكِنِّي ذَهَشْتُ عِنْدَمَا
سَمِعْتُهُ يَقُولُ إِنَّ مُعْظَمَ النَّاسِ يُؤْمِنُونَ بِهَذَا الرَّأْيِ عَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّهُ لَا يُوَافِقُ
عَلَيْهِ .

قَالَ لِي : « لَقَدْ رَأَيْتُ الدَّوَامَةَ الْآنَ وَأَخَذْتُ فِكْرَةً جَيِّدَةً عَنْهَا . وَإِذَا
رَخَفَتْ حَوْلَ هَذِهِ الصَّخْرَةِ وَابْتَعَدَتْ تَغْضُ الشَّيْءِ عَنِ الصَّوْتِ فَسَوْفَ أَقْصُرُ

مِنْكَ قِصَّةَ تُرِيكَ أَنِّي أَغْرِفُ شَيْئًا عَنِ الْمَوْسُكُوسْتَرُومِ . »

فَانْتَقَلْنَا إِلَى الْحِزِّ الْخَلْفِيِّ مِنَ الصَّخْرَةِ ، وَوَصَلَّ حَدِيثُهُ قَائِلًا : « كُنَّا
نَحْنُ الثَّلَاثَةُ - أَخَوَايَ الْاِثْنَانِ وَأَنَا - نَمْتَلِكُ مَرْكَبًا شِرَاعِيًّا حُمُولَتُهُ حَوَالِي
سِنِينَ طُنًا ، وَقَدْ اعْتَدْنَا أَنْ نُرَاوِلَ الصَّيْدَ فِي الْمِنْطَقَةِ الْوَاقِعَةِ وَرَاءَ جَزِيرَةِ
مُوسْكُو وَتَصِلَ فِي عَمَلِنَا إِلَى مَا يَقْرُبُ مِنْ جَزِيرَةِ قُوزُغِ .

« كَانَ فِي تِلْكَ الْمِنْطَقَةِ سَمَكٌ وَفِيرٌ لِأَنَّ الْمَنَاطِقَ الَّتِي يَزْدَادُ فِيهَا غُفُ
الْبَيَارَاتِ الْبَحْرِيَّةِ تُكَوِّنُ زَاخِرَةً بِالسَّمَكِ وَلَا تَحْتَاجُ إِلَّا إِلَى شَيْءٍ مِنَ
الشَّجَاعَةِ . وَكُنَّا نَحْنُ الثَّلَاثَةُ الْوَحِيدِينَ مِنْ بَيْنِ كُلِّ صَيَّادِي لُوفُوتِنَ الَّذِينَ
اعْتَدْنَا أَنْ نَذْهَبَ بِانْتِظَامٍ إِلَى تِلْكَ الْمِنْطَقَةِ كَمَا قُلْتُ لَكَ . أَمَّا الْبَاقُونَ فَكَانُوا
يَذْهَبُونَ إِلَى مَنَاطِقِ الصَّيْدِ الْمُعْتَادَةِ الَّتِي تَقَعُ بَعِيدًا إِلَى الْجَنُوبِ . وَكُنَّا نَخَاطِرُ
بِالذَّهَابِ إِلَى مَنَاطِقِ الدَّوَامَةِ لِأَنَّ السَّمَكَ الْمُتَنَازِلَ الَّذِي كُنَّا نَصْطَادُهُ كَانَ
مَوْحُودًا بِكَمِّيَّاتٍ وَفِيرَةٍ حَوْلَ صَخُورِ جَزِيرَةِ مُوسْكُو .

« كَانَ مِنْ عَادَتِنَا أَنْ نَجْرَ إِلَى الْجَزِيرَةِ فِي رُبْعِ السَّاعَةِ الَّتِي يَقَعُ بَيْنَ حَرَكَتَيْ
الْمَدِّ وَالْجُرْرِ ، ثُمَّ نَقُومُ بِالصَّيْدِ هُنَاكَ حَتَّى ثَانِي فِتْرَةِ الْهُدُوءِ الثَّالِيَةِ بَعْدَ حَوَالِي
سِتِّ سَاعَاتٍ ، وَعِنْدَئِذٍ نَقُومُ بِرَحْلَةِ الْعُودَةِ . وَلَمْ نَكُنْ نَبْدَأُ الْإِبْحَارَ إِلَّا فِي
رِيحٍ طَيِّبَةٍ أَثَاءَ رَحْلَتِي الذَّهَابِ وَالْعُودَةِ . وَلَمْ يَخْدَثْ أَنْ أُخْفَقَا فِي جِهَابِ
الرَّمْلِ حَسَانًا دَقِيقًا إِلَّا فِي مَرَّتَيْنِ ، وَفِي الْمَرَّتَيْنِ خَطَبْنَا بِالسَّلَامَةِ وَالْأَمَانِ وَنَحْنُ
عَلَى مَقَرَّةٍ مِنَ الْجُرْرِ .

« كُنَّا نَغْتَرُّ الْمَوْسُكُوسْتَرُومَ نَفْسَهَا دُونَ أَنْ يُصَيِّنَا مَكْرُوهًا ، عَلَى الرَّغْمِ

من أن قلبي كان يخفق بعنف في تعصي الأحياء عندما كنا نقوم بالغور متأخرين أو متقدمين بدقة أو ما يقاربها عن الموعد المحدد لفترة الهدوء . وكان لأحي الأَكْبَرِ ابنُ يسع من العُمر ثمانية عشر عامًا ، كما كان لي ثلاثة أبناء . وكان من الممكن أن يساعدوا باستخدام المجاذيف في قترات الهدوء . ولكننا لم نفكر قط في تعريضهم للخطر الذي كنا نقدم نحن عليه . ذلك أن الأمر كان جد خطير وهذه هي الحقيقة .

« كان ذلك منذ حوالي ثلاث سنوات ، وبالتحديد في اليوم العاشر من يوليو سنة - ١٨ عندما صادفنا عند هذا الساحل أعنف عاصفة هتت علينا في حياتنا ، على الرغم من أن الريح كانت نهب رضاء من الجنوب الشرقي منذ الصباح الباكر حتى ساعة متأخرة بعد الظهر ، ولم تكن في السماء سحابة واحدة . وكنا نحن الثلاثة - أخواي وأنا - قد غبرنا إلى الحُزُر في حوالي الساعة الثانية بعد الظهر . وبعد فترة وجيزة كنا قد ملأنا القارب بالسملك الممتد ، وأخضعنا أن السمك في ذلك اليوم كان أوفر منه في أي وقت مضى . وتذانا رحلة العودة عندما كانت ساعتنا تشير إلى الساعة حتى نصل إلى مكان المونكوستروم وقت هدوء الماء ، فقد كنا نعرف أن الهدوء سوف يحين في الساعة الثامنة مساء .

« واصدنا بنهارنا بسرعة عالية لفترة من الزمن دون أن يكون لدينا أي احتمال بأن شيئاً خطيراً سوف يحدث . وفجأة وبدون أي إنذار توقفت الريح ولم نستطع أن نحرر أي تقدم . وفي نفس الوقت جاءت وراءنا سحابة

عربية نحاسية اللون تتحرك بسرعة فائقة . ولم ندع لنا العاصفة وقتاً نفكر فيه ؛ ففي أقل من ثلاث دقائق كانت قد أحاطت بنا وأظلم الخوف فلم نستطع أخذنا أن نرى الآخر في المركب .

« من الغيب أن أحاول وصف تلك العاصفة ، ذلك أن أكبر البحارة الترويحيين ساء لم يشهد مثيلاً لها في حياته . فمجرد هبوبها قدمت بأحي الأصغر إلى البحر حيث لقي حتفه . وكان من الممكن أن ألقى مصيره لو لم ألتصق وأمسك بحلقة حديدية كانت في وسط المركب .

« عثرنا ماء البحر عدة دقائق كنت خلالها أمسك بأنفاسي ، وعندما أصبح من المستحيل أن أتوقف عن التنفس أكثر من ذلك حدثت على ركبتي مع تشبني بالخلفية الحديدية ، وبذلك رفعت رأسي فوق الماء لأتنفس . ثم اهتز مركبنا الصغير كما يهتز الكلب عند خروجه من الماء ، وطفا على الموج بصورة جزئية . وفي اللحظة التالية شعرت بيد تمسك ذراعي ، وكان ذلك أحي الأَكْبَرِ ودق قلبي فرحاً به إذ إني كنت حسيته قد عرق لا محالة . لكن سرعان ما تحول فرحي إلى خوف عندما وضع فمه على مقربة من أذني وصاح بكلمة « مونكوستروم » .

« ليس في وسع أحد أن يذكر كيف كانت مشاعري في تلك اللحظة : لقد ارتعدت من قمة رأسي إلى أخمص قدمي ، وكأنا قد أصابني أشد حمى نمكن تخيلها . لقد عرفت ما كانت تعنيه تلك الكلمة الواحدة ، وعرفت ما يريدني أن أدركه . لقد كانت الرياح تدفعنا رأساً الآن نحو دوامة

أَلْمُوسَكُوتُوم . وَلَيْسَ أَمَامَا مَا يُعْكِنُ أَنْ يَنْقِذَا اللَّهُمَّ إِلَّا إِذَا وَصَلْنَا إِلَيْهَا فِي
فَتْرَةِ الْهَدْوِ .

« كُنَّا قَدْ فَقَدْنَا أَشْرِعَتَنَا وَلَمْ نَعُدْ لَنَا قُدْرَةً عَلَى السَّيْطَرَةِ عَلَى الْمَرْكَبِ وَنَحْنُ
سَدُوعٌ بِسُرْعَةٍ وَسَطٌ أَمْوَاجٍ كَالْحِمَالِ لَمْ أَرْ مَثِيلًا لَهَا طَوَالَ حَيَاتِي . وَخَدْتُ
شَيْءًا مِنَ التَّغْيِيرِ فِي السَّمَاءِ عَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّ الظَّلَامَ كَانَ مُطْبِقًا عَلَيْنَا مِنْ كُلِّ
جَانِبٍ . إِنْتَابَتِي الْخَمْرَةُ لِفَتْرَةٍ قَصِيرَةٍ ، ثُمَّ ظَهَرَتْ فَوْقَنَا مُبَاشِرَةً دَائِرَةً وَسَطَ
السُّحُبِ أَظْهَرَتْ لِي السَّمَاءَ الزَّرْقَاءَ الصَّافِيَةَ ، وَظَهَرَ الْبَدْرُ بِوَرْدِهِ مُنِيرًا كُلَّ مَا
حَوْلَنَا . وَلَكِنْ بَالَهُ مِنْ مَنَظَرٍ ذَلِكَ الَّذِي أَظْهَرَهُ لِي ضَوْءُ الْقَمَرِ .

« حَاوَلْتُ آنَذَاكَ أَنْ أُتَحَدَّثَ مَعَ أَحِي ، وَلَكِنْ لَمْ يَكُنْ فِي اسْتِطَاعَتِهِ أَنْ
يَسْمَعَ كَلِمَةً وَاحِدَةً مِمَّا قُلْتُ ، لِأَنَّ الصَّوْتَ حَوْلَنَا كَانَ قَدْ عَلَا عُلُوًّا كَثِيرًا
لَسَبَبٍ لَمْ أَعْرِفْهُ . حَرَّكَ أَحِي رَأْسَهُ وَرَفَعَ سَبَابَتَهُ كَأَنَّمَا يَقُولُ لِي :
(اِسْتَمِعْ !) وَلَكِنِّي لَمْ أَفْهَمْ مَا كَانَ يَعْنِيهِ .

« فَخَاةٌ جَاءَتْنِي فِكْرَةً مُفْرِعَةً ، فَأَخْرَجْتُ سَاعَتِي وَعَرَفْتُ أَنَّهَا قَدْ
تَوَقَّفَتْ ، وَنَظَرْتُ إِلَى عَقَارِبِهَا فِي ضَوْءِ الْقَمَرِ وَأَذْرَكْتُ السَّبَبَ فِي كُلِّ هَذَا
الْهَوْلِ . لَقَدْ تَوَقَّفَتْ سَاعَتِي عِنْدَ السَّاعَةِ السَّابِعَةِ . صَدَمْتَنِي بِلَاكِ الْحَقِيقَةِ ،
هَاتَمَجَرْتُ بِأَكْيَا وَأَنَا الْقِي بِالسَّاعَةِ إِلَى غُرْضِ الْمُحِيطِ . لَقَدْ كَانَ ذَلِكَ سَبَبًا
نَاحِرًا إِلَى مَا بَعْدَ فِتْرَةِ الْهَدْوِ ، وَصَارَتْ الدَّوَامَةُ آنَذَاكَ فِي أَوْجِ عُنُقِهَا .

« بَعْدَ فِتْرَةٍ وَجِيزَةٍ جَاءَتْ مَوْحَةٌ عَالِيَةٌ فَحَمَلْتُنَا مَعَهَا عَالِيًا كَأَنَّمَا تَذْهَبُ بِهَا

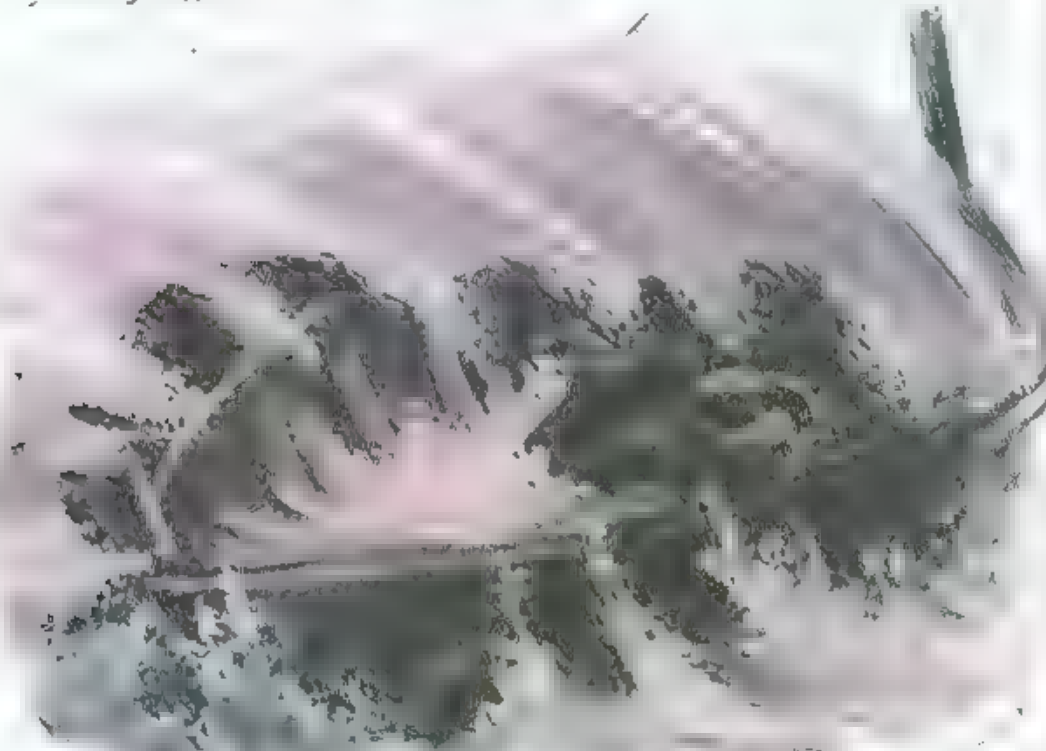
إلى عباب السماء ، ثم اندفعنا بعد ذلك إلى أسفل نهوي بسرعة حمشتي أشعر
بالغيان . وكنت عندما رفعتنا الموحدة قد نظرت من شاهق نظرة سريعة على
ما حولي ، وكانت تلك النظرة كافية ، فقد أدركت حقيقة موقفا في لحظة
واجدة . إن دوامة المونسكوستروم على بعد كيلو مترين ، وعمصت عيني
وقد استند لي الخوف بدرجة لم يسبق أن شعرت بها قط .

« بعد ما لا يزيد عن دقيقتين كنا قد دخلنا ذلك الطوق الأبيض العريض
الذي يحيط بالدوامة ، ودار المركب حول نفسه بصف دورة نحو
الداحل ثم انطلق في اتجاه الحديد وكأنه سهم يتفلق من قوسيه . وحقت
الريخ والأمواج ، وتغير زئير الماء ليصبح صفيرا عاليا ، وكأنه صفير ألف
سمية نحارية أرسلت صفيرها دفعة واحدة . توقفت بطيعة الحال أننا سوف
نعوض في قاع الدوامة بعد دقيقة أخرى . ولم يكن في وسعنا أن ننظر إلى
مركز الدوامة بسبب السرعة الهائلة التي كنا نطلق بها . وكان المحيط الذي
حلقناه وراءنا يقف الآن إلى حاسبا وكأنه حائط هائل يحول بيننا وبين النظر
إلى الأفق .

« قررت تبني ونس نفسي - بعد أن أصبحنا الآن فريسة في فم
الموت - ألا أشعل بأي أمل . وعندما وصلت إلى هذا القرار بدأت أفكر في
روعة الموت بهذه الطريقة وقد أحاطت بنا من كل جانب دلائل قدرة الله .
ربما اعتقدت أنه شيء أشبه بالجنون - أو أنه جنون اليأس - ولكن الرغبة
التي راودتني في تلك اللحظة هي اكتشاف ما في أعماق هذه الدوامة . وكان

ما أخربي كثيرا هو أنني لن أعيش بعد ذلك لأزوي لأصحابي على الشاطئ
تلك الأسرار الغامضة التي يكتُمها البحر في أحشائه والتي سوف أطلع
عليها .

« من المستحيل أن نقول كم من المرات دُرنا حول حافة الدوامة . لقد
مكثنا حوالي الساعة تدور وتدور ، وكنا تقترب بالتدريج من الطرف
الداخلي المنفرج بذلك الطوق الأبيض . وكان الماء تحتنا يتحدر بزاوية
حادّة ، وكنت طوال هذا الوقت متشبعا بقوة بالحلقة الحديدية . أما أخي
فقد كان في ذلك الوقت في مؤخرة المركب متمسكا بزميل فارغ صغير كان
مربوطا بالمركب ربطا محكما . وكان ذلك الزميل الشيء الوحيد الذي لم
تغصف به الرياح عندما داهمتنا أول مرة . وفي دورتنا الأخيرة حول حافة



الدَّوَامَةُ ، قَبْلَ أَنْ تَهْطِطَ مَرْكَبًا إِلَى وَسْطِهَا ، انْدَفَعَ أَحْيَى نَحْوِي وَالْحَوْفُ
يَغْصِرُهُ — خَوْفٌ مَنْ أَصِيبَ بِالْجُودِ — وَفَكَ يَذِي مِنَ الْخَلْقَةِ لِيُمْسِكَ هُوَ
بِهَا . وَلَمْ أَشْعُرْ بِخَرْبٍ كَذَلِكَ الْخَرْبِ الَّذِي شَعَرْتُ بِهِ عِنْدَمَا حَدَثَ هَذَا مِنْ
أَحْيَى ، رَغْمَ أَنِّي كُنْتُ أَغْرِفُ أَنَّ عَمَلَهُ هَذَا لَنْ يَقْدَّمَ أَوْ يُؤَخَّرَ ، فَتَرَكْتُ لَهُ الْخَلْقَةَ
لِيُمْسِكَ بِهَا وَدَهَشْتُ أَنَا إِلَى الْبَرَمِيلِ . وَمَا إِنَّ أُنْسَكْتُ بِالْبَرَمِيلِ حَتَّى دَارَ الْمَرْكَبُ
دَوْرَةً عَيمَةً نَحْوَ الدَّاحِلِ ، وَانْدَفَعَ مَعَ الْمِيَاهِ الدَّوَارَةِ فِي الْخُرْءِ الْأَسْفَلِ مِنَ
الدَّوَامَةِ . وَعِنْدَئِذٍ دَعَوْتُ اللَّهَ بِدُعَاءٍ قَصِيرٍ وَقُلْتُ فِي نَفْسِي لَقَدْ آتَيْتَنِي كُلَّ شَيْءٍ .

« عِنْدَمَا شَعَرْتُ بِالنُّزُولِ الْفُحَائِي الْمُرْعَبِ أَرَدْتُ نَشِيبًا بِالْبَرَمِيلِ ،
وَأَعْمَصْتُ عَيْنِي وَلَمْ أَجِسَّ عَلَى فَتْحِهَا لِبَضْعِ ثَوْبٍ ، فَقَدْ كُنْتُ أَتَوَقَّعُ الْتَهَابَةَ
عَلَى الْقَوْرِ ، وَتَعَمَّصْتُ لِمَادَا لَمْ أَكُنْ حَتَّى الْآنَ فِي صِرَاعِ الْمَوْتِ مَعَ الْمَاءِ .
وَمَرْتُ دَقِيقَةً وَأَنَا مَا زِلْتُ حَيًّا . وَعِنْدَمَا رَأَيْتُ غَيَّ الشُّعُورِ بِالسَّقُوطِ إِلَى آهَابَةِ
تَجَاسَّرْتُ وَفَتَحْتُ عَيْنِي .

« لَنْ أُنْسَى طَوَالَ حَيَاتِي ذَلِكَ الْمَنْظَرَ الَّذِي رَأَيْتُهُ . لَقَدْ نَدَا لِي أَنَّ الْمَرْكَبَ
مُعَلَّقٌ فِي الصَّنْفِ الدَّاخِلِي لِخُفْرَةٍ دَائِرِيَّةٍ عَلَى شَكْلِ قِمَعٍ فُطِرَهُ أَقْلٌ مِنْ كَيْلُو
مِترٍ وَعُمُقُهُ سَاحِقٌ . وَكَانَتْ جُذُرَانُ بَلْكَ الْخُفْرَةِ مِنَ الْمَاءِ الْأَسْوَدِ الْأَمْلَسِ
كَالْأَنْبُوسِ اللَّامِعِ ، وَكَانَتْ تَدُورُ وَتَدُورُ بِسُرْعَةٍ مُفْزِعَةٍ . وَكَانَ ضَوْؤُ الْقَمَرِ
يَسَابُغُ فِي رَوْعَتِهِ عَلَى بَلْكَ الْجُذُرَانِ وَإِلَى الْخُرْءِ الْأَسْفَلِي مِنْهَا حَتَّى قَاعِ
الْمُحِيطِ .

« فِي أَوَّلِ الْأَمْرِ مِنَ الْأَرْتِيَاكِ بَخْتُ لَمْ أَلَا حِظٌّ إِلَّا الْمَنْظَرُ الْعَامُّ لِمَا حَوْلِي —
« مِنْ بَعْدِ مُرُورِ دَقِيقَةٍ أَوْ اثْنَتَيْنِ لَاحِظْتُ أَنَّ رَاوِيَةَ الْجِدَارِ الْمَاءِ كَانَتْ خَوَالِي
« مَسَّسَ دَرَجَةً وَأَنَّ الْمَرْكَبَ كَانَ مُسْتَوِيًا عَلَى الْمَاءِ فِي وَضْعِهِ الْعَادِيِّ وَلَمْ أَجِدْ
« مَعْنَى فِي أَنْ أَحَاطَ عَلَى مَوْضِعِ قَدَمِي ، إِذْ إِنَّ سُرْعَةَ الدَّوَارِ كَانَتْ هَائِلَةً .

« كَانَ آتِزًا أَوَّلَ مَرَّةٍ نَحْوَ الدَّوَامَةِ قَدْ دَفَعَا — كَمَا سَقَى أَنْ ذَكَرْتُ —
« حَوَالِي مُتَنَصِّفِ الطَّرِيقِ نَحْوَ آهَابَةِ . وَلَكِنْ نُرُونَا إِلَيْهَا بَعْدَ ذَلِكَ أَصْبَحَ
« أَكْثَرَ بَطْلًا إِذْ أُخِذْنَا تَدُورُ وَتَدُورُ فِي كُلِّ دَوْرَةٍ كُنَّا نَنْزِلُ مِتْرًا أَوْ
« مَا يُقَارِبُهُ .

« لَقَدْ أَتَانِي فِي ذَلِكَ فُرْصَةٌ لِأَنْ أَنْظُرَ حَوْلِي فَأَذْهَشَنِي أَنْ أَرَى أَنَّ مَرْكَبَنَا
« لَمْ يَكُنْ الشَّيْءَ الْوَاحِدَ الَّذِي يَتَحَرَّكُ عَلَى صَفْحَةِ الدَّوَامَةِ . فَقَدْ كَانَ فِي وَسْطِي
« أَرَى فَوْقًا وَتَحْتَنَا بَعْضَ حُطَامِ السُّمَنِ وَخُذُوعِ الْأَشْجَارِ وَأَشْيَاءَ صَغِيرَةٍ مِثْلِ
« الْمَسَادِقِ وَالرَّامِيلِ وَالْعَصِيِّ . لَا تُدْ أُنِّي لَمْ أَكُنْ فِي وَغْيِ الْكَامِلِ فِي ذَلِكَ
« أَوْفَ ، إِذْ إِنِّي كُنْتُ أَسْأَلُ وَأَنَا أَنْتَظِرُ الْمَوْتَ — يَنْحَاوِلُ تَحْمِينَ أَيَّ الْأَشْيَاءِ
« هِيَ يَلْكَ أَلَّتِي جَاءَ عَلَيْهَا الدَّوْرُ لِأَنْ تَذْهَبَ إِلَى الْقَاعِ .

« وَقُلْتُ فِي نَفْسِي ذَاتَ مَرَّةٍ : (لَا تُدْ أَنْ كُنْتَ الْحَشَبِ تِلْكَ هِيَ أَلَّتِي جَاءَ
« دَارَهَا لَكِنِّي تَخْتَفِي .) وَلَكِنْ خَابَ ظَنِّي عِنْدَمَا رَأَيْتُ حُطَامَ إِخْدَى السُّمَنِ
« الْحَارِيَّةِ يَسْبِقُهَا إِلَى قَاعِ الْخُرْءِ . وَقَدْ وَقَعْتُ فِي عِدَّةِ أَخْطَاءٍ مِنْ هَذَا النَّوْعِ .
« فَإِنَّ تَهْطِطَ عَلَيَّ بِكَرَّةٍ ... فَكَّرَةً جَعَلْتُ أَطْرَافِي تَرْتَبِدُ ثَابِتَةً ، وَقُلْتُ يَدُقْ بِعَنْبٍ
« مَرَّةً أُخْرَى .

« لَمْ يَكُنْ مَا أَهْبَ مَشَاعِرِي حَوْفًا مِنْ نَوْعٍ حَدِيدٍ ، بَلْ كَانَ مِيلَادُ أَمَلٍ مُشِيرٍ . كَانَ لِأَخْطَائِي فِي التَّخْمِينِ مَعْنَى وَاحِدَةٌ : إِنَّ الشَّيْءَ الْكَبِيرَ كَانَ يَقُومُ بِرَحْنَةِ أَهْلَاوِيَةِ سُرْعَةٍ أَكْثَرَ مِنَ الشَّيْءِ الصَّغِيرِ . وَبَدَأَ لِي وَأَنَا أَنْظُرُ إِلَى الْأَشْيَاءِ الطَّافِيَةِ أَنَّ عَدَدًا كَبِيرًا مِنَ الْأَجْسَامِ الصَّغِيرَةِ الْحُثْمِ لَنْ تَصِلَ إِلَى مَرْكَرِ الدَّوَامَةِ أُنْدَا ، وَأَنَّ حَرَكَةَ أَلْمَدِّ سَتَعْبِيرُ وَتَهْدَأُ الدَّوَامَةُ قَبْلَ أَنْ تَعُودَ تِلْكَ الْأَجْسَامُ إِلَى الْقَاعِ . وَعِنْدَئِذٍ سَوْفَ تَطُلُ طَافِيَةٌ عَلَى السَّطْحِ وَتَحْمِلُهَا التِّيَارُ إِلَى خَيْثُ يَشَاءُ »

« وَآتَيْنَا تَفْكَيرِي فِي هَذِهِ الطَّاهِرَةِ لَأَخْطُفَ أَنَّ جِدْعَ شَجَرِهِ قَصِيرًا وَسَمِيكًا كَانَ فِي مُحَادَاتِنَا مِنْ قَبْلُ ، وَلَكِنَّهُ الْآنَ أَعْلَى مَا بِكَثِيرٍ وَأَتْنَا كَمَا مَرَرْنَا بِهِ زِدَادَاتِ الْمَسَافَةِ تَيْنَا أَسَاعًا . لَمْ تُرَدِّدْ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ بَلْ قَرَّرْتُ أَنَّ أُرْبِطَ نَفْسِي إِلَى الْبِرْمِيلِ الَّذِي كُنْتُ مُمْسِكًا بِهِ ثُمَّ أَفْكُ وَثَاقَهُ مِنَ الْمَرْكَبِ ، وَالتَّقِي بِنَفْسِي مَعَهُ إِلَى الْمَاءِ .

« وَحَاوَلْتُ قَدْرَ إِمْكَانِي أَنْ أَشْرَحَ هَذِهِ الْخُطَّةَ لِأَخِي مُسْتَعْمِلًا الْإِشَارَاتِ وَكُنْتُ أَتَيْنَا شَرْحِي لَهُ أَشِيرُ إِلَى كُتَلِ الْخَشَبِ الَّتِي أَقْتَرَبْتُ مِنْهَا . وَأَعْتَبَدُ أَنَّهُ فَيَهِمُ مَا أُرِيدُ قَوْلُهُ وَلَكِنْ سَوَاءٌ أَكُنْ قَدْ فَهِمَ حَقِيقَةً أَمْ لَا ، فَإِنَّهُ حَرَّكَ رَأْسَهُ رَافِعًا فِي يَاسٍ وَأَبَى أَنْ يُعَادِرَ مَكَانَهُ بِجَوَارِ الْخَلْقَةِ الْحَدِيدِيَّةِ . لَفَظَ كَانَ الْأَمْرُ آنَئِذٍ فِي حَاجَةٍ إِلَى تَصَرُّفٍ سَرِيعٍ ، وَلَمْ يَكُنْ فِي وَسْعِي أَنْ أَتَأَخَّرَ فَتَرَكْتُ أَخِي لِمَصِيرِهِ عَلَى الْوَرَعِ مِنِّْي ، ثُمَّ قُمْتُ بِرَبْطِ نَفْسِي إِلَى الْبِرْمِيلِ مُسْتَعْمِلًا الْخَيْلَ الَّذِي يَرْتَبُطُ الْبِرْمِيلُ بِالْمَرْكَبِ ، وَتَدَخَّرْتُ نَحْوَ الْبَحْرِ دُونَ أَيِّ تَرَدُّدٍ .

« كَانَتْ النَّتِيجَةُ كَمَا تَوَقَّعْتُ تَمَامًا . وَبِمَا أَنِّي أَقْصُ عَنْكَ الْآنَ هَذِهِ الْقِصَّةَ فَيُمْكِنُكَ أَنْ تَرَى أَنِّي قَدْ تَجَوَّزْتُ بِالطَّرِيقَةِ الَّتِي وَصَفْتُهَا . فَفِي السَّاعَةِ الْتَالِيَةِ كَانَ مَرْكَبُنَا قَدْ هَبَطَ نَحْوَ مَرْكَرِ الدَّوَامَةِ بِمَسَافَةٍ أَكْبَرَ بِكَثِيرٍ مِنَ الْمَسَافَةِ الَّتِي هَبَطْتُ بِهَا . وَقَدْ رَأَيْتُ مَرْكَبَنَا يَقُومُ بِثَلَاثِ لَفَافٍ سَرِيعَةٍ أَوْ أَرْبَعٍ ، ثُمَّ يَعُودُ فَنَاجَاةً وَإِلَى الْآيِدِ حَامِلًا أَخِي الْمَحْبُوبَ إِلَى الْمِيَاهِ الْغَاضِيَةِ فِي قَاعِ الدَّوَامَةِ . أَمَّا الْبِرْمِيلُ الَّذِي كُنْتُ مَرْبُوطًا فِيهِ فَلَمْ يَهْبِطْ إِلَّا بِنِصْفِ الْمَسَافَةِ ، ثُمَّ حَدَثَ تَغْيِيرٌ كَبِيرٌ فِي الْمِنْطَقَةِ الْمُحِيطَةِ بِي ، إِذْ أَحْدَثَ زَاوِيَةُ التَّجْدَارِ الْمَاءَ فِي

الدَّوَامَةُ ثِقَلٌ تَذَرِيحِيًّا ، وَبَدَأَتْ حَرَكَةُ الدَّوَامَةِ الدَّائِرِيَّةُ تَحِفٌ جِدَّةٌ ، وَبَدَأَ لِي
أَنْ مَرَكَزَ الدَّوَامَةُ قَدْ بَدَأَ يَرْتَفِعُ . أَمَّا السَّمَاءُ فَقَدْ صَفَتْ ، وَالرِّيَّاحُ قَدْ هَدَأَتْ ،
وَكَانَ الْبَدْرُ قَدْ أَوْشَكَ عَلَى الْغُرُوبِ عِنْدَمَا طَمَوْتُ عَلَى سَطْحِ الْمُحِيطِ . لَقَدْ
كُنْتُ فَوْقَ الْمَكَانِ الَّذِي اخْتَلَتْهُ الدَّوَامَةُ . وَعَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّهُ كَانَ الْوَقْتُ
الَّذِي تَهْدَأُ فِيهِ الدَّوَامَةُ إِلَّا أَنَّ الْمَوْجَ كَانَ عَالِيًا بِسَبَبِ الْعَاصِفَةِ .

« وَبَعْدَ فِتْرَةٍ خَمَلَنِي الْتَيَّارُ السَّرِيعُ نَحْوَ الشَّاطِئِ فِي مِنتَقَةِ الصَّيْدِ
الْجَنُوبِيَّةِ ، وَهُنَاكَ التَّقَطَّنِي مَرْكَبُ صَيْدٍ ، وَكَانَ بِحَارَتِهِ مِنْ أَصْدِقَائِي فِي
لُوفُوتِينَ . وَلَكِنْ لَمْ يَعْرِفْنِي أُبَيٌّ وَاجِدٌ مِنْهُمْ لِأَنَّ شَعْرِي الَّذِي كَانَ أَسْوَدَ اللَّوْنِ
فِي الْيَوْمِ الْأَمْضِيِّ قَدْ ائْبَضَ كُلُّهُ كَمَا تَرَاهُ الْآنَ . وَمَكُنْتُ فِتْرَةً لَا أَقْوَى عَلَى
الْكَلَامِ رَغْمَ أَنَّ الْخَطَرَ قَدْ زَالَ بِسَبَبِ التَّجَرِبَةِ الْخَمِيرَةِ الَّتِي مَرَّتْ بِي .

« ثُمَّ أَخْبَرْتُهُمْ بِقِصَّتِي فِي الْهَيَاةِ ، وَلَكِنَّهُمْ لَمْ يُصَدِّقُوا . وَهَئِنْدَا أُخْبِرُكَ
بِهَا وَلَا أَتَوَقَّعُ مِنْكَ أَنْ تَكُونَ أَكْثَرَ تَصَدِّيقًا مِنْهُمْ . »

انْهِيَازُ بَيْتِ « أَشَر »

سَافَرْتُ وَخَدِي مُنْتَضِبًا جَوَادِي مُيَمَّمًا شَطْرَ « بَيْتِ أَشَر » ، وَكَانَ
سَفَرِي فِي يَوْمٍ كَثِيبٍ مِنْ أَيَّامِ الْحَرِيفِ . وَعِنْدَمَا اقْتَرَبْتُ مِنَ الْمَكَانِ شَعَرْتُ
بِاتِّبَاصٍ ، وَازْدَادَ هَذَا الشُّعُورُ وَكَأَنَّمَا كَانَ يَتَجَاوَبُ مَعَ تِلْكَ السَّمَاءِ الْغَائِمَةِ
الْمُظْلِمَةِ قَوْيَ ، وَمَعَ تِلْكَ الْحُذْرَانِ الْبَارِدَةِ الرَّمَادِيَّةِ أُمَامِي . وَلَمْ أَعْرِفْ سَبَبًا
لِشُّعُورِ الْإِتِّبَاصِ هَذَا مَا لَمْ يَكُنْ نَتِيجَةً لِمَظْهَرِ الْبَيْتِ الْقَدِيمِ الْمُتَدَاعِي
وَالْمِنتَقَةِ الْمُحِيطَةِ بِهِ . لَقَدْ كَانَتْ نَوَافِذُ الْبَيْتِ الْكَبِيرَةِ السَّوْدَاءِ تُبْدُو أُمَامِي
وَكَأَنَّمَا أَغْيَسَ سَوْدَاءُ فِي وَجْهِ خَالٍ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ سِوَاهَا . وَكَانَتْ الْجُدُوعُ
الْبَيْضَاءُ لِأَشْجَارِ خَالِيَةِ مِنَ الْحَيَاةِ تُحِيطُ بِخَيْرَةٍ سَكَنَتْ مِيَاهَهَا . وَكَانَتْ تِلْكَ
الْمِيَاهُ السَّابِكَةُ تَعْكِسُ الْمَنْظَرَ الْمُحِيطَ بِهَا فَتُبْدُو الصُّورَةَ أَكْثَرَ كَآبَةً مِنَ
الْحَقِيقَةِ . وَأَحِيرًا تَحَلَّيْتُ عَنْ مُحَاوَلَةِ مَعْرِفَةِ سَبَبِ اتِّبَاصِي وَتَرَكْتُ الْبَحِيرَةَ
مُتَجِّهًا نَحْوَ الْبَيْتِ .

كَانَ رُودْرِيكَ أَشَر - صَاحِبُ الْبَيْتِ - أَقْرَبُ أَصْدِقَاءِ الطُّعْمُولَةِ إِلَى
نَفْسِي ، وَلَكِنْ لِقَاءَهَا الْأَخِيرَ كَانَ مُنْذُ عِدَّةِ سَنَوَاتٍ . وَكَانَ قَدْ أُرْسِلَ إِلَيَّ أَخِيرًا
دَعْوَةً عَاجِلَةً لِأَقُومَ بِزِيَارَتِهِ ، بَلْ إِنَّهُ فِي الْحَقِيقَةِ قَدْ رَجَايَ أَنْ أَمُكُثَ عِنْدَهُ عِدَّةَ
أَسَابِيعٍ . وَقَالَ لِي فِي حِطَابِهِ إِنَّهُ كَانَ يُعَالِي مِنْ مَرَضٍ شَدِيدٍ ؛ مَرَضٍ فِي
أَعْصَابِهِ ، وَإِنَّ صُحْبَتِي لَهُ سَوْفَ تُذْجِلُ الْبَهْجَةَ إِلَى نَفْسِهِ ، وَتُهْدِي مِنْ
أَفْكَارِهِ الْمُضْطَرِّبَةِ . وَشَعَرْتُ مِنْ حِطَابِهِ أَنَّهُ صَادِقٌ فِي كُلِّ مَا قَالَهُ ، فَلَمْ أَتَرَدَّدْ
فِي تَلْبِيَةِ دَعْوَتِهِ . وَهَئِنْدَا أُمَامَ بَيْتِ أَشَر .

على الرِّعْمِ مِنْ صِدَاقَتِنَا الْخَمِيمَةِ حِلَالِ فِتْرَةِ الطُّغُولَةِ فَإِنَّ مَعْلُومَاتِي عَنْهُ
كَانَتْ قَلِيلَةً . لَقَدْ تَذَكَّرْتُ أَنَّ عَالِيًا مَا كَانَ هَادِيًا مُتَرَوِّيًا ، وَأَنَّ عَائِلَتَهُ الْعَرِيقَةَ
عُرِفَ أَقْرَابُهَا بِخِيَالِهِمُ الْمُمَيِّزِ ، وَأَنَّ يَلِكَ الظَّاهِرَةُ قَدْ تَحَلَّتْ فِي صُورَةِ أَعْمَالِ
فَنِيَّةٍ وَمُوسِيقِيَّةٍ عَظِيمَةٍ وَعَدِيدَةٍ . وَكُنْتُ أَعْرِفُ كَذَلِكَ يَلِكَ الْحَقِيقَةَ الْعَرِيبَةَ
عَنِ الْعَائِلَةِ ، أَغْنِي بِهَا أَنَّهُ لَمْ تَكُنْ لَهَا أَيُّ فُرُوعٍ وَأَنَّ تَسْتَسْلِلُ أَقْرَابُهَا كَانَ
مُشَاشَرًا ، وَلِهَذَا فَإِنَّ اسْمَ الْعَائِلَةِ وَمُتَمَلِّكَاتِهَا كَانَتْ تَتَقَبَّلُ مِنَ الْأَبِّ لِلْأَبْنِ مِنْ
ذَوْنِ انْطِطَاعٍ . وَلِهَذَا فَإِنَّ كَلِمَةَ بَيْتٍ أَسْرَ ، لَمْ تَكُنْ تَعْنِي الْمَنْزِلَ وَالْأَرْضَ
مَحْشُبٌ ، وَلَكِنَّهَا كَانَتْ تَعْنِي كَذَلِكَ يَلِكَ الْعَائِلَةَ الْوَحِيدَةَ الَّتِي تَعِيشُ
بِالْبَيْتِ .



عِنْدَمَا اقْتَرَنْتُ مِنَ الْبَيْتِ الرَّمَادِيِّ الصَّخْمِ تَوَهَّمْتُ شَيْئًا غَرِيبًا : لَقَدْ خِيلَ
إِلَيَّ أَنَّ الْهَوَاءَ الَّذِي يُحِيطُ بِالْبَيْتِ كَانَ مُخْتَلَفًا عَنْ بَاقِي الْهَوَاءِ الَّذِي خَلَقَهُ اللَّهُ .
وَطَنَنْتُ أَنَّ الْبَيْتَ فِي ذَلِكَ هُوَ يَلِكَ الْأَشْجَارِ الذَّابِلَةِ وَالْجُذُرَانِ الرَّمَادِيَّةِ
وَالْبَحِيرَةِ السَّاكِنَةِ . بَلْ خِيلَ إِلَيَّ أَنَّ الْهَوَاءَ نَفْسَهُ رَمَادِيٌّ وَأَنَّهُ يُحِيطُ بِالْمَكَانِ
كَالسَّحَابِ . وَلَمْ أَتَحَلَّصْ مِنْ وَهْمِي هَذَا إِلَّا بِصُعُوبَةٍ .

وَعِنْدَمَا ذَنُوتُ مِنَ الْبَيْتِ وَرَأَيْتُهُ بِوُضُوحٍ ظَهَرَ أَنَّ الْبَيْتَ قَدِيمٌ
لِلْغَايَةِ - فَقَدْ كَانَ الْبِنَاءُ مَا يَزَالُ كَامِلًا فَلَمْ يَسْقُطْ مِنْهُ أَيُّ جُزْءٍ ، وَلَكِنَّ كُلَّ
حَجَرٍ مِنْ أَحْجَارِهِ كَانَ كَقَايَا حَجَرٍ سَحَقْتَهُ الْأَعْوَامُ . وَلَمْ يَظْهَرْ بِالْبَيْتِ



مظهر آخر من مظاهر الضعف باستثناء شرح طويل ضيق يمتد من سقف
البيت عند الواحة حتى مستوى الأرض .

أخذ أحد الخدم حصاني ثم دخلت الممر الموصول للقاعة .. وبعد ذلك
قاذي آخر في سكون غير العديد من الممرات المتوية المظلمة ليصل لي إلى
غرفة سيده . وكان لمعظم ما رأيته وأنا في الغرفة أثر غريب في نفسي ، رغم
أنني كنت معتاداً طوال حياتي على رؤية ما رأيته من أسقف مزركشة وستائر
سميكة ودروع وأسلحة قديمة وصقوف من الصور . وقد قابلت طبيب
العائلة وأنا أصعد الدراج ، وقد بدت عليه مظاهر الخيرة والخوف عندما
رآني .

عندما وصلت في النهاية إلى غرفة مضيئي القيثارة حجرة واسعة مظلمة
دات سقف مرتفع ، ومزدحمة الأثاث القديم . وكانت عدة كتب وآلات
موسيقية مبعثرة هنا وهناك ، ولكنها لم تبعث شيئاً من الحياة في المنظر العام
للغرفة . وشعرت أنني أنفَسُ هواءاً مشبعاً بالحزن .

رحب بي أشر بحاررة ثم جلسنا ، وأخذت أنظر إليه للحظات والشفقة تملأ
جوانحي . ليس من شك أن التغيير الذي لحق به لم يحدث لأحد قبله في مثل
هذه الفترة الوجيزة . لقد كان دائماً شاحب الوجه ولكنه لم يكن قط في مثل
هذا الشحوب . إن عينيهِ الواسعتين اللامعتين قد أصبحتا الآن أكثر اتساعاً
وبصورة غير طبيعية ، كما ازداد لمعائهما بدرجة مذهلة . وأصبحت شفاته
مجرد خطين مرسومين على وجهه ، أما شعره الجميل الناعم فهو الآن أشعث
غير مهذب يطفو في غير نظام على وجهه ورقبته .

وتعيرت تصرفات صديقي كذلك بدرجة لا تقل عرامة . لقد كان طوال
نوقت إما في حالة من التوتر الشديد أو القلق العنيف . وبالتفاهل سريعاً من حالة
إلى أخرى كان صوته يتغير فجأة بحيث تتحول النبرة الهائجة المرتفعة إلى صوت
ناب مثان وكأنه صوت شخص قد أسرف في الشراب .

وبهذا الأسلوب تحدث عن رباتي ، وعن زعيته الصداقة في رؤيتي ،
والارتياح النفسي الذي يتوقع أن ينجم عن رباتي له . وبدأ يقص علي قصة
مرصه في إسهاب وتفصيل ، وقال في وصف هذا المرص إنه نعمة أصابت
عائلته ، ويندو أن لا علاج له . ثم أضاف إلى ذلك قوله فجأة إنه مريض بسيط
ليس من شك في أنه سيروى . وكان يقاسي كثيراً من جده خواسيه ، فليس
في وسعه أن يأكل إلا الطعام الذي لا طعم له ، وأن يلبس إلا ثوباً معيناً من
القماش ، ولا يقوى على تحمّل رائحة الأرواح كما أن أحمث الأضواء يؤذي
عشيه . وقد أصدر أمره بالآلا يصنر بالبيت أي صوت باستثناء بعض الأصوات
الموسيقية .

قال : « إنني أخشى المستقبل ، ولا أعني بذلك أنني أخشى ما يحدث فيه
بل أثر هذه الأحداث علي . إنني أرتعد خوفاً من حدوث أي شيء يريد من
قلبي حتى وإن كان هذا الشيء تافهاً إنني أشعر — في حالتي الطبيعية
هذه — أنه سوف يأتي وقت قريب أنحلص فيه من روحي وجسدي معاً أثناء
صراعي مع الخوف . »

لقد صدمت عندما عرفت أنه لم يغادر بيته منذ عدة سنوات . وقد قال

ي : « إِنْ أَلَيْتَ بِجُذْرِيهِ وَأُتْرَاحِهِ قَدْ سَيَّطَرَ عَلَيَّ كُلَّ السَّيْطَرَةِ ، وَهُنَاكَ قُوَّةٌ غَرِيبةٌ تُرْطِطِي بِهِ وَكَأَنَّ أَلَيْتَ وَمَا فِيهِ كَاتِنَاتٌ حَيَّةٌ . » وَلَمْ أَعْرِفْ مَاذَا أَقُولُ لِصَدِيقِي عَنْ ذَلِكَ .

وَاعْتَرَفَ لِي بِشَيْءٍ مِنْ التَّرَدُّدِ أَنَّ قَدْرًا كَبِيرًا مِنْ تَعَاسِيَتِهِ يَرْجِعُ إِلَى سَبَبٍ سَيِّئٍ هُوَ الْمَرَضُ الْمَرْمِزُ الَّذِي تُعَانِي مِنْهُ شَقِيقَتُهُ الَّتِي يُحِبُّهَا مِنْ كُلِّ قَلْبِهِ . إِنَّهَا رَفِيقَتُهُ مِنْ سَنَوَاتٍ عَدِيدَةٍ ، وَآخِرُ أَقْرَابِيهِ عَلَى الْأَرْضِ . وَقَالَ لِي بِمَرَارَةٍ لَنْ أُنْسَاهَا : « إِنَّهَا سَوَفَ تَمُوتُ قَرِيبًا . وَيَمُوتُهَا أَصْبَحُ آخِرَ فَرْدٍ فِي عَائِلَةٍ أَشْرَ الْغَرِيقَةِ . » وَفِي أَثْنَاءِ حَدِيثِهِ مَرَّتْ لِيَدِي مَادِلِينَ - فَقَدْ كَانَ هَذَا اسْمُهَا - بِأَقْصَى الْعُرْفَةِ وَلَمْ تُلْحِظْ وَحُودِي مَعَ أَخِيهَا ، فَتَطَرَّتْ إِلَيْهَا بِدَهْشَةٍ وَخَوْفٍ حَقِيقِيَّيْنِ ، وَلَمْ أَذِرْ سِتِيًّا لِتِلْكَ الدَّهْشَةِ وَذَلِكَ الْخَوْفُ . وَعِنْدَمَا دَهَبَتْ نَظَرْتُ إِلَى صَدِيقِي فَوَحَدْتُهُ قَدْ عَطَى وَجْهَهُ بِكِلْتَا رَاحَتَيْهِ لِيُخْفِي طُوفَانًا مِنَ الدَّمُوعِ

إِنَّ الْمَرَضَ الَّذِي تُعَانِي مِنْهُ لِيَدِي مَادِلِينَ قَدْ أَعْجَزَ أَطِبَّاءَهَا رَغْمَ مَهَارَتِهِمْ ، وَلَمْ تُعَدِّ تَهْتُمُ بِأَنْ تَعِيشَ أَوْ تَمُوتَ . إِنَّ نَقْصَانَ وَزَيْنَا الْمُسْتَمِرَّ قَدْ جَعَلَ جِسْمَهَا وَاهِنًا ضَعِيفًا ، وَمِمَّا رَادَ الطَّيِّبُ بَلَّةٌ أَنَّ قَلْبَهَا كَانَ يَتَوَقَّفُ مِنْ وَقْتٍ لِآخَرٍ . وَقَالَ لِي صَدِيقِي فِي حُزْنٍ يَصِفُ تِلْكَ الْفَتَرَاتِ الَّتِي يَتَوَقَّفُ فِيهَا قَلْبُهَا : « لَا يُمَكِّنُ التَّفَرُّقَةُ بَيْنَ هَذِهِ الْفَتَرَاتِ وَبَيْنَ الْمَوْتِ الْحَقِيقِيِّ . إِنْ عَلَيْهَا الْآنَ أَنْ تَظَلَّ فِي فِرَاشِهَا ، وَاعْتَقِدْ أَنَّا لَنْ نَرَاهَا مَرَّةً أُخْرَى عَلَى قَيْدِ الْحَيَاةِ . »

مَكُنَّا عِدَّةَ أَيَّامٍ لَا نَذْكُرُ اسْمَهَا ، وَجَلَالَ تِلْكَ الْفَتْرَةِ كُنْتُ أَبْدُلُ قُصَارَى

حَنْدِي كَيْ أَتَبَعَ الرَّاحَةَ وَالْبَهْجَةَ فِي قَلْبِ صَدِيقِي . فَكُنَّا نَقُومُ مَعًا بِالرَّسْمِ وَالْقِرَاءَةِ ، أَوْ كُنْتُ أَسْتَمِعُ - وَكَأَنِّي فِي حُلِيمٍ - إِلَى الْمَوْسِيقَى الَّتِي كَانَ يَعْرِفُهَا . وَازْدَادَتْ أَوَاصِيرُ الصَّدَاقَةِ بَيْنَنَا ، وَأَخَذَ كُلُّ مَّا يَقْصُرُ عَلَى الْآخَرِ أَسْرَارَهُ وَدَخِيلَةَ نَفْسِهِ . وَلَكِنْ كَانَ هَذَا كُلُّهُ مِنْ دُورٍ جَدْوَى إِذْ إِنَّ الظَّلَامَ الَّذِي كَانَ يَمْلَأُ مُحِيطَهُ قَدْ صَبَغَ كُلَّ شَيْءٍ حَوْلَنَا بِلَوْنٍ أَسْوَدَ ، وَكَأَنَّمَا هُوَ طُوفَانٌ مِنَ الْبُؤْسِ لَا آخِرَ لَهُ .

سَوَفَ أَذْكُرُ دَائِمًا تِلْكَ السَّاعَاتِ الطَّوِيلَةَ الْخَادَةَ الَّتِي قَضَيْتُهَا مَعَ صَاحِبِ نَيْتٍ أَشْرَ ، وَلَكِنْ لَيْسَ فِي وَسْطِي أَنْ أُشْرَحَ بِصُورَةٍ وَافِيَةٍ مَا كُنَّا نَقُومُ بِهِ مِنْ أَعْمَالٍ وَمُنَاقَشَاتٍ . لَقَدْ كَانَتْ لَهُ مِثْلُهُ الْعُلْيَا الَّتِي أَصْنَحْتُ مُحْتَطِلَةً مُضْطَرِبَةً خِلَالَ مَرَصِيهِ الطَّوِيلِ ، وَلَمْ يَكُنْ فِي وَسْطِهِ أُنْدَاكَ إِلَّا أَنْ يُعَرَّ عَنْ هَذِهِ الْمَثَلِ بِاللُّونِ وَالصُّوَبِ : بِأَكْثَرِ الْأَرْسُومِ غَرَابَةٍ وَبِالْمَوْسِيقَى الصَّغْبَةِ الَّتِي يَقُومُ هُوَ بِوَضْعِهَا . وَلَمْ يَكُنِ الْبَاقِي عَنْ هَذَا التَّعْبِيرِ شَيْئًا يَتَسِمُ بِالْوُضُوحِ حَتَّى بِالنَّسْبَةِ إِلَيْهِ نَفْسِهِ . وَلِهَذَا فَبِسِ الْمُمْكِنِ أَنْ تُتَصَوَّرَ مَدَى الصُّعُوبَةِ الَّتِي وَاحْتَنَتْهَا وَأَنَا أَحَاوِلُ فَهْمَهُ .

لَقَدْ ظَنَنْتُ يَوْمًا أَنَّ فِكْرَةَ إِخْدَى صُورِهِ سَهْلَةٌ بَعْضُ الشَّيْءِ عَلَى الرَّغْمِ مِنْ عَدَمِ تَفْهَمِي لَهَا . وَلَقَدْ تَذَكَّرْتُ تِلْكَ الصُّورَةَ لِأَنَّهَا جَعَلَتْني أَرْبَعْدًا وَأَنَا أَنْظُرُ إِلَيْهَا . فَقَدْ ظَهَرَ فِي تِلْكَ الصُّورَةِ مَرٌّ مُسْرِفٌ فِي الطَّوِيلِ ، وَلَهُ حُذْرَانِ مُنْحَمِضَةٌ نَاعِمَةٌ بِيضَاءٍ . وَتُظْهِرُ حَلْفِيَّةَ الصُّورَةِ أَنَّ هَذَا الْمَرَضَ مُنْخَفَضٌ كَثِيرًا عَنْ سَطْحِ الْأَرْضِ ، وَلِكَيْسِي لَمْ أَرَلُهُ مُخْرَجًا وَلَيْسَتْ بِهِ مَصَابِيحُ أَوْ أَيُّ مُصْدِرٍ

آخِرَ اللَّيْلِ . وَمَعَ ذَلِكَ فَقَدْ كَانَ الْمَنْظَرُ بِأَحْمَرِهِ يَسْبُحُ فِي بَحْضٍ مِنَ الْأَشْيَاءِ
الْأَلَامِيَةِ .

وَفِي أَثْنَاءِ إِخْدَى مُنَاقَشَاتِنَا قَالَ لِي أَشْرَ إِنَّهُ يَعْتَقِدُ أَنَّ لِلْبَيِّنَاتِ جَمِيعًا الْقُدْرَةَ
عَلَى الْإِحْسَاسِ . وَقَالَ كَذَلِكَ إِنْ لَبِغَ الْأَجْسَامُ غَيْرَ الْحَيَّةِ الْقُدْرَةَ عَلَى
الْإِحْسَاسِ فِي ظِلِّ بَعْضِ الظُّرُوفِ . وَكَأَنَّكَ دَكَّرْتُ أَنَا فَإِنَّ لِهَذَا الْإِعْتِقَادَ عِلَاقَةً
بِالْأَحْجَارِ الرَّمَادِيَّةِ لِبَيْتِهِ . فَقَدْ كَانَ يَرَى أَنَّ الطَّرِيقَةَ الَّتِي صُنِّفَتْ بِهَا تِلْكَ
الْأَحْجَارُ فِي الْجُذُرِ مِنْ مَثَابِ الْأَعْوَامِ قَدْ مَنَحَتْهَا حَيَاةً خَاصَّةً بِهَا . كَمَا أَنَّ
مَاءَ الْبَحِيرَةِ وَالْأَشْحَارِ الذَّابِلَةَ لَهَا نَصِيبٌ فِي تِلْكَ الْحَيَاةِ . وَأَضَافَ قَائِلًا :
« إِنْ مَا يَنْشِئُ وَجُودَ قُدْرَةِ عَلَى الْإِحْسَاسِ لَدَى الْجُذُرِ وَمَاءِ الْبَحِيرَةِ أَنَّهَا
قَامَتْ بِالتَّدْرِيجِ وَبِصُورَةٍ أَكْبَدَةٍ بِإِعَادِ نَوْعٍ مِنَ الْهَوَاءِ الْخَاصِّ بِهَا لِیَحِيطَ
بِالْمَكَانِ . »

دَكَّرَنِي هَذَا الْقَوْلُ بِمَا سَاوَرَنِي مِنْ أَفْكَارٍ وَأَنَا أَقْتَرُبُ مِنَ الْبَيْتِ مِمَّا جَعَلَنِي
أَشْهَقُ فِي تَعَجُّبٍ وَاسْتِعْرَابٍ . وَوَصَلَ حَدِيثُهُ قَائِلًا : « لَقَدْ كَانَ لِهَذَا الْهَوَاءِ
أَثَرُهُ الصَّامِتُ الْمُرْعَبُ عَلَى أَفْرَادِ أَسْرَنِي . وَهُوَ الَّذِي جَعَلَنِي عَلَى مَا أَنَا
عَلَيْهِ . » فَالْتَزِمْتُ الصَّمْتَ وَأَنَا غَيْرُ قَادِرٍ عَلَى التَّفَكُّيرِ فِي رَدِّ مُنَاسِبٍ .

ذَاتَ مَسَاءٍ قَالَ لِي أَشْرَ فِي كَلِمَاتٍ مُقْتَضِيَةِ إِنْ أَلَيْدِي مَادِلِينَ قَدْ تَوَقَّيْتُ ،
وَإِنَّهُ يَتَوَيَّ أَنْ يَحْتَفِظَ بِحُجَّتِهَا لِمُدَّةِ أَسْوَعِينَ قَبْلَ أَنْ يَذْمُوهَا فِي إِخْدَى الْعُرُوفِ
الْعَدِيدَةِ أَسْفَلَ الْبَيْتِ . وَلَمْ يَكُنْ سَبَبَ قَرَارِهِ هَذَا غَيْرُ طَبِيعِي ، لِأَنَّهُ كَانَ قَدْ
وَضَعَ فِي اعْتِبَارِهِ ذَلِكَ الْمَرَضَ الْغَرِيبَ الَّذِي كَانَتْ تُعَالِي مِنْهُ . وَبِاخْتِصَارٍ كَانَ

هَدَفُهُ أَنْ يَتَأَكَّدَ مِنْ أَنَّهَا قَدْ مَاتَتْ حَقِيقَةً قَبْلَ أَنْ يَضَعَ جُثَّتَهَا فِي مَقْبَرَةِ الْعَائِلَةِ .

اسْتَجَبْتُ لِطَلَبِ أَشْرَ وَسَاعَدْتُهُ فِي الْقِيَامِ بِهَذِهِ التَّرْتِيبَاتِ . لَقَدْ
قُمْنَا - نَحْنُ الْاِثْنَيْنِ فَقَطْ - بِحَمْلِ الْجُثَّةِ دَاخِلَ الثَّابُوتِ إِلَى غُرْفَةٍ صَغِيرَةٍ
رَطْبَةٍ مُظْلِمَةٍ تَفُتُّ أَسْفَلَ الْمَكَانِ الَّذِي كُنْتُ أَنَامُ فِيهِ . وَكَانَتْ تِلْكَ الْعُرْفَةُ
تُسْتَعْدَمُ فِيمَا مَضَى مِنَ الزَّمَانِ مَخْرَجًا لِلْأَرْدِ أَوْ غَيْرِهِ مِنْ مَوَادِّ خَطَرَةٍ . وَكَانَ
حُزْنٌ مِنْ أَرْضِ الْعُرْفَةِ مُعْطًى بِالتَّحَاسِ ، كَمَا كَانَ السَّحَابُ يُعْطِي حُزْنَ ذَلِكَ
الْمَرَّ الطَّوِيلَ الْمُؤَدِّي إِلَى الْعُرْفَةِ وَيُحِيطُ بِالْبَابِ الْحَدِيدِيِّ الثَّقِيلِ الْخَاصِّ بِتِلْكَ
الْعُرْفَةِ .

بَعْدَ أَنْ وَضَعْنَا الثَّابُوتَ عَلَى مِنْضَدَةٍ مُخَفِّضَةٍ أَرَحْنَا الْبَعْطَاءَ قَلِيلًا وَنَظَرْنَا إِلَى
وَحْيِ الْمُنَوَّافَةِ ، وَلَا حِظُّ عَلَى الْفُورِ أَنَّ الْأَخَّ وَأُخْتَهُ كَانَا مُتَشَابِهَيْنِ تَمَامًا .
وَقَدْ لَاحَظْتُ أَشْرَ مَا دَارَ فِي دَهْشِي فَقَالَ لِي إِنَّهُمَا كَانَا تَوَاقِمَيْنِ ، وَإِنَّهُمَا كَانَا
مُتَعَاطِفَيْنِ بِصُورَةٍ غَيْرِ عَادِيَةٍ . لَقَدْ شَابَ وَحْهَهَا وَرَقَبَتُهَا لَوْنٌ طَافِيفٌ ،
وَكَانَتْ عَلَى شَفَتَيْهَا انْتِسَامَةٌ حَافِيَةٌ تَبْعَتْ الرُّعْتَ لِأَنَّهَا تَأْتِي مِنْ شَخْصٍ مَيِّتٍ .
لَمْ يُطِلَّ النَّظَرَ إِلَيْهَا ، بَلْ أَرْجَعْنَا الْبَعْطَاءَ إِلَى مَكَانِهِ وَاعْتَقْنَاهُ ، ثُمَّ أَوْصَدْنَا الْبَابَ
الْحَدِيدِيَّ ، وَرَجَعْنَا إِلَى الْحِجْرِ الْعُلَوِيِّ مِنَ الْبَيْتِ .

بَعْدَ ثَلَاثَةِ أَوْ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ مِنَ الْحَرَنِ الْمَرِيرِ لَاحَظْتُ شَيْئًا مِنَ التَّغْيِيرِ فِي
نَصْرَفَاتِ صَدِيقِي . لَقَدْ أَهْمَلَ أَوْ سَيَّ نَشَاطَهُ الْعَادِيَّ مِنْ مُوسِيقَى وَقَرَاءَةِ
وَرَسْمٍ ، وَكَانَ يَحْوُلُ مِنْ غُرْفَةٍ إِلَى غُرْفَةٍ مِنْ دُونَ أَنْ يَعْمَلَ شَيْئًا أَوْ يَهْنَمَ
بِشَيْءٍ . وَازْدَادَ شَحُوبٌ وَحِجْهُ عَنْ ذِي قَلْبٍ ، وَزَالَ عَنْ عَيْنَيْهِ لَمَعَانُهَا

وَكُنْتُ أَحْسَنُ فِي بَعْضِ الْأَخْيَانِ أَنْ لَدُنْهِ سِرًّا يُرِيدُ أَنْ يُفَضِّلَ بِهِ إِلَيَّ ، وَلَكِنْ
ثَقُصْتُ الشَّجَاعَةَ فِي ذَلِكَ . وَكَانَ فِي أَوْقَاتٍ أُخْرَى يَجْلِسُ سَاعَاتٍ طَوِيلَةً
مُحَاوِلًا الْإِصْغَاءَ إِلَى أَصْوَاتٍ يَتَحَيَّلُهَا ، وَكَأَنَّمَا كَانَ يَتَوَقَّعُ حَدُوثَ شَيْءٍ غَيْرِ
عَادِيٍّ هَلْ مِنْ الْمُسْتَقَرِّ أَنْ تَمْلَأَنِي حَالَتُهُ بِلَكِّ الْخَوْفِ ، وَأَنْ أَشْعُرَ بِأَنْ
مُحَاوَلَةِ آمْرِعَةِ قَدْ بَدَأَتْ تَشَانِي ؟

فِي اللَّيْلَةِ السَّابِعَةِ أَوْ الثَّامَةِ بَعْدَ وَفَاةِ اللَّيْذِيِّ مَادِلِينَ بَدَأْتُ أَحْسَنُ بِقُوَّةِ بِلَكِّ
الْمَشَاعِرِ . وَكَانَتْ غِيَايَ لَا تَقْصِدُ لِسَاعَاتٍ طَوِيلَةٍ وَأَنَا أَحَاوِلُ مُقَاوَمَةَ
مَشَاعِرِ الْخَوْفِ هَذِهِ وَكُنْتُ أَنَحِي بِاللُّؤْمِ عَلَى الْبَيْتَةِ الْمُحِيطَةِ بِي ، وَعَلَى
الْأَنَافِثِ الْمُتَرَبِّبَةِ وَاسْتَنَائِرِ الْمَمْرُوقَةِ الَّتِي تَرُوحُ حَيْثُ وَذَهَابًا أَمَامَ الرِّيحِ الَّتِي
تَسُوقُهَا عَاصِفَةٌ تَنْدِرُ بِالْهَوْبِ . وَكُنْتُ أَنَحِي بِاللَّائِمَةِ أَيْضًا عَلَى الْفِرَاشِ الَّذِي
كُنْتُ أَنَامُ عَلَيْهِ . وَلَكِنْ بِلَكِّ التَّعَلُّاتِ لَمْ تُحْدِ شَيْئًا .

وَأَحِيرًا نَهَضْتُ مِنْ فِرَاشِي وَنَظَرْتُ مِيًّا فِي ظِلَامِ الْعُرْفَةِ فَسَمِعْتُ —
أَوْ حَيَّلَ إِلَيَّ أَنِّي سَمِعْتُ — بَعْضَ الْأَصْوَاتِ الْخَافَةِ الَّتِي كَانَتْ تُحْيِيءُ مِنْ
حَيٍّ إِلَى حَيٍّ كَمَا حَفَّتْ صَوْتُ الرِّيحِ . فَاسْرَعْتُ بِإِرْتِدَاءِ مَلَابِسِي وَأَنَا
أَرْتَعِدُ — وَنَهْ أَكْرَأُ أَدْرِي أَمْ لَخَوْفٍ كَانَ أَرْتَعَادِي أَمْ مِنْ التَّرَدُّدِ ، وَخَاوَلْتُ
أَنْ أَهْدِي رُؤُوعِي بِالسَّيْرِ السَّرِيعِ حَيْثُ وَذَهَابًا دَاخِلَ الْعُرْفَةِ .

بَعْدَ أَنْ سِيرْتُ مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا سَمِعْتُ طَرَفًا خَفِيفًا عَلَى الْبَابِ ، ثُمَّ دَحَلُ
شَرٌّ وَهُوَ بِحُمْلٍ مَضْطَحًا . كَانَتْ طَرَاتُ عَيْنِيهِ ثُمَّ عَنْ قَبْلِ شَدِيدٍ .

صَاحَ لِي مَخَاةً : « أَلَمْ تَرَهَا ؟ إِنَّكَ لَمْ تَرَهَا حَتَّى الْآنَ ، وَلَكِنْ أَنْتَظِرْ



فَسَوَفَ تَرَاهَا . » ، ثُمَّ وَضَعَ مِصْبَاحَهُ بِعِنَايَةٍ فِي مَأْمَنٍ مِنَ الرِّيحِ ، وَأَسْرَعَ
نَحْوَ الْتَافِذَةِ وَفَتَحَهَا لِتَنْدِفَعَ مِنْهَا رِيحُ الْعَاصِفَةِ .

أَوْشَكَتِ الْعَاصِفَةُ الَّتِي هَبَّتْ أَنْ تُثْقِيَ بِنَا أَرْضًا ، وَمَعَ ذَلِكَ لَمْ تُكُنِ
الْعَاصِفَةُ هِيَ الَّتِي جَذَبَتْ انْتِبَاهَنَا ، وَلَا السُّحُبُ الْكَثِيفَةُ الَّتِي كَانَتْ تَتَطَايَرُ فِي
سُتَى الْإِنْتِجَاهَاتِ حَوْلَ الْبَيْتِ وَالَّتِي حَجَبَتْ الْقَمَرَ وَالنُّجُومَ - وَلَكِنْ
مَا جَذَبَ انْتِبَاهَنَا هُوَ الْبَيْتُ نَفْسُهُ وَكُلُّ مَا حَوْلَهُ - فَقَدْ كَانَتْ
جَمِيعُهَا - حَتَّى السُّحُبُ فِي السَّمَاءِ - تَلْمَعُ بِضَوْءٍ غَيْرِ طَبِيعِي غَرِيبٍ ،
وَكَانَ هَذَا الضَّوُّ يَتَّبِعُ مِنَ الْجُذُرَانِ وَمِنْ مَاءِ الْبَحِيرَةِ .

قُلْتُ لَهُ : « يَجِبُ أَلَّا تَنْظُرَ إِلَى هَذَا الضَّوِّ وَسَوَفَ أُحَوِّلُ بَيْنَكَ وَبَيْنَ
رُؤْيَيْهِ . إِنَّ هَذَا الضَّوِّ الَّذِي يُقْلِقُكَ لَيْسَ إِلَّا مُجَرَّدَ اضْطِرَابَاتٍ كَهْرِبَائِيَّةٍ فِي
الْجَوِّ . هَيَّا بِنَا نُغْلِقِ الْتَافِذَةَ إِذْ إِنَّ الرِّيحَ بَارِدَةً ، وَهِيَ ضَارَةٌ بِصِحَّتِكَ . هَا هُوَ
ذَا أَحَدُ كُتَيْبِكَ الْمَفْضَلَةِ ، وَسَوَفَ أَقْرَأُ فِيهِ ، وَعَلَيْكَ أَنْ تَسْتَمِعَ ، وَبِذَلِكَ
نَقْضِي هَذِهِ اللَّيْلَةَ الْمَفْزُوعَةَ مَعًا . »

بَدَأْتُ أَقْرَأُ وَبَدَأَ أَشْرَ يَسْتَمِعُ أَوْ يَتَظَاهَرُ بِالْإِسْتِمَاعِ فِي اهْتِمَامٍ كَبِيرٍ . وَكَانَ
الَّذِي أَقْرَأُهُ قِصَّةً مَشْهُورَةً لِسِرِ لُونِسِيلُوتِ كَانِيَج . وَبَعْدَ أَنْ وَاصَلْتُ الْقِرَاءَةَ
لِثَمَانِي أَوْ عَشْرِ دَقَائِقَ وَصَلْنَا إِلَى الْمَوْقِفِ الَّذِي يَفْتَحُهُ فِيهِ بَطْلُ الْقِصَّةِ بَيْتَ
عَدُوِّهِ . وَكَانَتْ كَلِمَاتُ الْقِصَّةِ فِي هَذَا الْمَوْقِفِ عَلَى النَّحْوِ الْآتِي :

« فَرَفَعَ إِنْلَرْدُ سَيْفَهُ وَضَرَبَ الْبَابَ ضَرْبَاتٍ غَنِيْفَةً حَتَّى كَسَرَهُ وَفَتَحَهُ .
وَكَانَ صَوْتُ الْبَابِ وَهُوَ يَنْكَسِرُ يَكَادُ يَمْلَأُ الْعَابَةَ . » وَفِي نِهَايَةِ هَذِهِ الْجُمْلَةِ

تَوَقَّفْتُ إِذْ خُيِّلَ إِلَيَّ أَنِّي أَسْمَعُ صَوْتًا خَافِتًا لِخَشَبٍ يَنْكَسِرُ ، وَكَانَ يَبْدُو أَنَّ
هَذَا الصَّوْتَ يَأْتِي مِنْ مَكَانٍ نَاءٍ فِي الْبَيْتِ ، وَقُلْتُ فِي نَفْسِي لَا بُدَّ أَنَّهُ نَاجِمٌ عَنْ
بَعْضِ الْأَضْرَارِ الَّتِي أَخَذَتْهَا الْعَاصِفَةُ ، وَلَيْسَ فِي هَذَا مَا يَهْمُنِي أَوْ يُقْلِقُنِي
فَوَاصَلْتُ قِرَاءَةَ الْقِصَّةِ :

« وَعِنْدَمَا دَخَلَ إِنْلَرْدُ الطَّيِّبُ تِلْكَ الْغُرْفَةَ وَقَفَ عَلَى أَرْضٍ مِنَ الْفِضَّةِ أَمَامَ
وَخَشٍ غَاضِبٍ ، وَكَانَ وَرَاءَ الْوَخَشِ دِرْعٌ كَبِيرٌ مُعَلَّقٌ عَلَى الْحَائِطِ مَكْتُوبٌ
عَلَيْهِ : مَنْ يَدْخُلُ هُنَا فَقَدْ انْتَصَرَ ، وَمَنْ يَقْتُلِ الْوَخَشَ فَلَهُ هَذَا الدَّرْعُ . رَفَعَ
إِنْلَرْدُ سَيْفَهُ مَرَّةً أُخْرَى وَضَرَبَ رَأْسَ الْوَخَشِ ، فَوَقَعَ الْوَخَشُ مَيِّتًا بَعْدَ أَنْ أُطْلِقَ
عِدَّةَ صَرَخَاتٍ اهْتَرَّتْ لَهَا الْجُذُرَانُ ، وَسَقَطَ الدَّرْعُ الثَّقِيلُ عَلَى الْأَرْضِ بِجَوَارٍ
قَدَمَيَّ إِنْلَرْدٍ . »

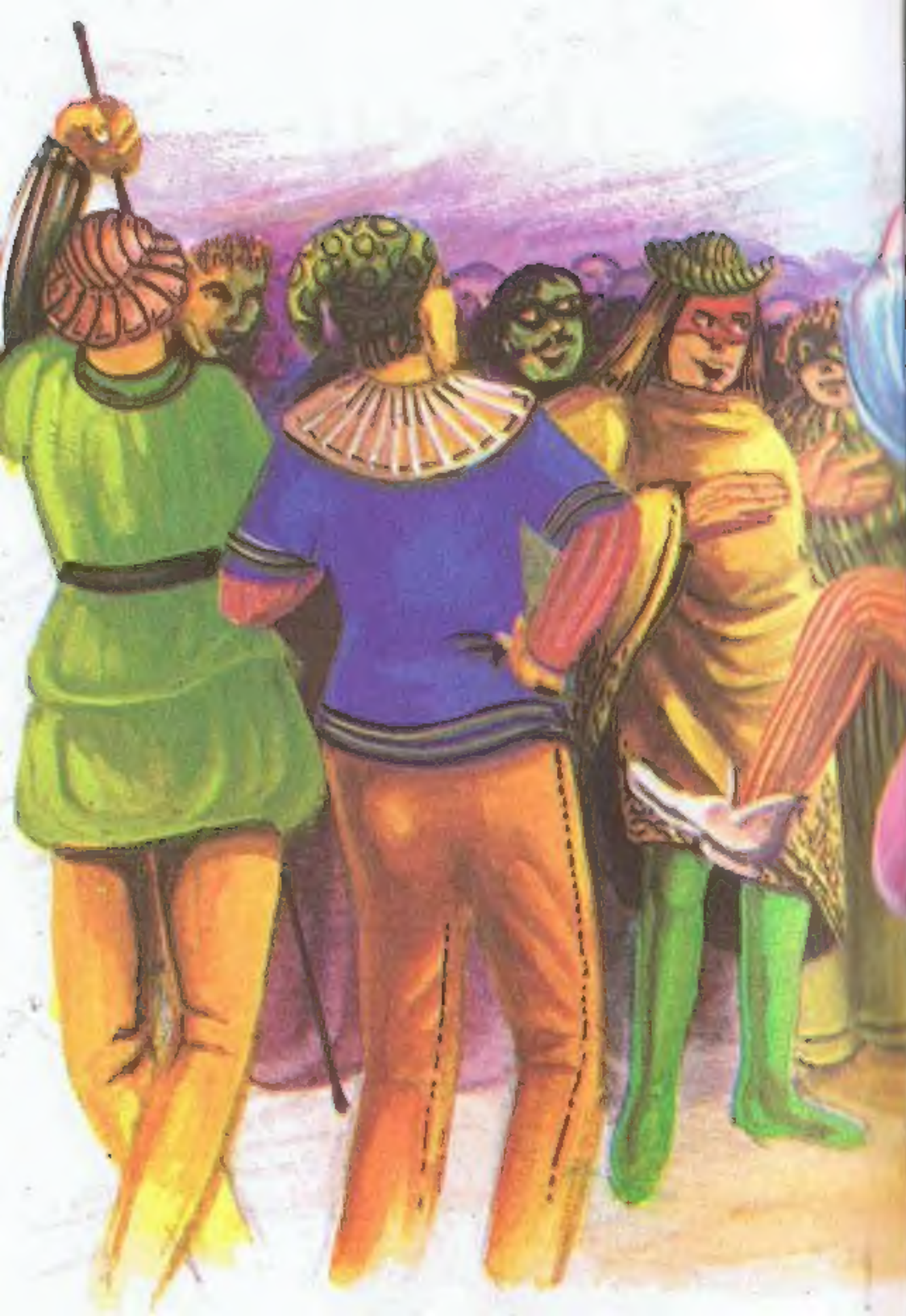
هُنَا شَعَرْتُ مَرَّةً أُخْرَى بِاللَّذْهَشَةِ وَالْخَوْفِ ، وَاضْطَرَرْتُ إِلَى أَنْ أَتَوَقَّفَ
عَنِ الْقِرَاءَةِ إِذْ إِنَّهُ لَمْ يَبْقَ لَدَيَّ شَيْءٌ أَتَذَكَّرُ أَنِّي سَمِعْتُ صَوْتَ أَلَمٍ وَاضِحٍ
وَخَافِيٍّ ، وَتَبِعَ ذَلِكَ عَلَى الْفَوْرِ صَوْتُ ضَرْبَاتٍ تَقَعُ عَلَى شَيْءٍ مَعْدِنِي . لَمْ
أَكُنْ مُتَأكِّدًا أَنَّ أَشْرَ نَفْسُهُ قَدْ سَمِعَ تِلْكَ الْأَصْوَاتَ ، فَانْدَفَعْتُ وَأَنَا أُرْتَعِدُ إِلَى
الْكُرْسِيِّ الَّذِي يَجْلِسُ عَلَيْهِ ، وَكَانَتْ عَيْنَاهُ مُرَكَّزَتَيْنِ عَلَى الْبَابِ وَشَفَتَاهُ
تَتَحَرَّكَانِ . وَعِنْدَمَا انْتَحَيْتُ نَحْوَهُ سَمِعْتُهُ يَقُولُ : « هَلْ أَسْمَعُهُ ؟ نَعَمْ ، إِنِّي
أَسْمَعُهُ وَقَدْ سَمِعْتُهُ لِعِدَّةِ دَقَائِقَ وَعِدَّةِ سَاعَاتٍ وَعِدَّةِ أَيَّامٍ . وَمَعَ ذَلِكَ لَمْ
أُجِرُّ ... آه يَا لِحَظَّتِي الْتَعِسِ ! إِنِّي لَمْ أُجِرُّ عَلَى الْكَلَامِ ... لَقَدْ وَضَعْنَاهَا
خَبَةً فِي الثَّابُوتِ . أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّ حَوَاسِي حَادَّةٌ ؟ إِنِّي أَخْبِرُكَ الْآنَ أَنِّي قَدْ

سَمِعْتُ حَرَكَاتِهَا الْأُولَى مِنْذُ عِدَّةِ أَيَّامٍ ، وَمَعَ ذَلِكَ لَمْ أَجْزُؤْ عَلَى الْكَلَامِ .
وَالآنَ فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ قَرَأْتُ لِي عَنْ إِنْثَرْد .. هَا ! هَا ! وَكَسَرَ الْبَابَ وَصَرَخَ
الْمَوْتُ الْمُتَبِعَةُ مِنَ الْوُخْشِ وَسُقُوطِ الدَّرَجِ .. قُلْ بَدَلًا مِنْ ذَلِكَ فَتَحَهَا
لِنَابُوتِهَا وَصَرَخَاتِهَا وَمُحَاوَلَاتِهَا فِي ذَلِكَ الْمَمَرِّ النُّحَاسِيِّ لِسِجْنِهَا . آهْ أَيْنَ
أُخْتِي ؟ أَلَنْ تَأْتِي قَرِيبًا إِلَى هُنَا ؟ أَلَنْ تُسْرِعَ إِلَيَّ مُؤَبَّةً لِي عَلَى تَسْرُعِي ؟ أَلَمْ
أَسْمَعْ خُطُواتِهَا عَلَى الدَّرَجِ ؟ أَلَا أَحْسُ بِدَقَّاتِ قَلْبِي الْغَنِيَةِ ؟ » وَهُنَا قَفَزَ
وَصَاحَ بِأَعْلَى صَوْتِهِ : « أَيُّهَا الْمَجْنُونُ ، إِنِّي أَخْبِرُكَ أَنَّهَا تَقِفُ الْآنَ خَارِجَ
الْبَابِ . »

وَانْفَتَحَ الْبَابُ الْكَبِيرُ وَكَانَ فِي صَوْتِ أَشْرٍ قُوَّةَ خَارِقَةٍ ، وَكَانَتْ الرِّيحُ
الصَّاخِجَةُ هِيَ الَّتِي فَتَحَتْ الْبَابَ عَلَى مِصْرَاعَيْهِ . وَهُنَاكَ خَارِجَ الْبَابِ كَانَتْ
تَقِفُ لِيَدَيِ مَادِلِينَ أَوْفَ أَشْرٍ يَقْوَامُهَا الطُّوِيلُ وَرِدَائِهَا الْأَيْضُ . ظَلَّتْ لِلْحُظَةِ
وَاقِفَةً بِالْبَابِ وَهِيَ تَرْتَبِّدُ ، ثُمَّ انْدَفَعَتْ نَحْوَ أَخِيهَا وَسَقَطَتْ بِثِقَلِهَا عَلَيْهِ وَهِيَ
تُطْلِقُ صَيْحَةً خَافَتَهُ . مَاتَ أَشْرُ لِقَوِّهِ مِنْ هَوْلِ الصُّدْمَةِ ، وَبَعْدَ دَقِيقَةٍ وَاحِدَةٍ
مَاتَتْ أُخْتُهُ بِجَوَارِهِ .

هَرَبْتُ مِنْ تِلْكَ الْغُرْفَةِ وَمِنْ الْبَيْتِ كُلِّهِ مِنْ قَرِطِ خَوْفِي . وَلَمْ أَنْظُرْ خَلْفِي
إِلَّا بَعْدَ أَنْ كُنْتُ قَدْ اجْتَرَزْتُ الْبُحَيْرَةَ . وَعِنْدَيْدِ دَوَى صَوْتِ يُصِمُّ الْأَذَانُ ، ثُمَّ
شَاهَدْتُ ذَلِكَ الشَّرْحَ الَّذِي أَشْرْتُ إِلَيْهِ مِنْ قَبْلِ وَالَّذِي يَمْتَدُّ مِنَ السَّقْفِ إِلَى
مُسْتَوَى الْأَرْضِ - شَاهَدْتُهُ يَتَسِعُ وَكَأَنَّهُ فَكًّا وَخَشٍ ضَخِيمٍ ، وَتَدَاعَتْ
الْجُذُرَانُ الضَّخْمَتَانِ ، وَسَمِعْتُ أَصْوَاتًا عَالِيَةً ، أَصْوَاتَ آلَافِ الْأَمْوَاجِ ، ثُمَّ
إِبْتَلَعَتْ مِيَاهُ الْبُحَيْرَةِ الْعَمِيقَةِ الدَّاكِنَةِ مَا تَبَقِيَ مِنْ حُطَامِ بَيْتِ أَشْرٍ .





المغامرات المثيرة

١ - مغامرة في الأدغال

٢ - مغامرة في الفضاء

٣ - مغامرة أسيرين

٤ - مغامرة في الجزيرة الخضراء

٥ - مغامرة على الشاطئ

٦ - الجاسوس الطائر

٧ - لصووس الطريق

٨ - حمد الفواص الشجاع

٩ - اللسان الغبيان

١٠ - مطاردة لصووس السيارات

١١ - مغامرات السندباد البحري

١٢ - لعبة خطيرة

١٣ - الحشرة الذهبية وقصص أخرى

١٤ - اللؤلؤة السوداء

١٥ - سر الجزيرة



مَكْتَبَةُ لِبْنَان

سَاحَةُ رِيَّاضِ الصِّلَح - بَیْرُوت

رقم مرجع كسبوتر 01 C 198 213